أنور الجندي
صدر يوم ٢٢/١٠/١٩٥٧



« عطـــارد »

—*—

١٩٥٦

طبع بمطابع شركة النيل للنشر والتوزيع
٤٦ شارع الجيش – ت ٤١٢٧٢

نحن العرب

« نص الدستور الجديد - دستور الشعب - على أننا جزء من الأمة العربية » .

نحن العرب ...

تلك الحقيقة الواقعة التى تجاهلناها فترة من الزمن . عند ما كان الاستعمار يمزق الجبهة الموحدة ، ويفصل الاواصر القائمة ويحطم القوى المترابطة . ولكننا نعود اليوم فنؤمن صادقين بأن هذه الوحدة ظلت قائمة لم تنفصم بالرغم من السدود والقيود التى وضعها خصوم العرب . وان الأمة العربية قائمة فعلا ، بعواطفها ومقوماتها ومعالمها ، قائمة فى أعماق النفوس العربية الممتدة من المحيط الاطلسى الى الخليج الفارسى . شعب عربى واحد يكافح فى سبيل دعم وحدته ويقاوم المستعمر ليكون قوة فعالة فى سبيل غد مشرق .

والحق ان هذه المنطقة من العالم تتميز بطابعها الخالص الموحد فى جغرافيته وعوامله الاقتصادية فضلا عن رابطة الفكر والتاريخ واللون العربى الاسلامى القائم وهى عوامل تدفع دائما الى الترابط والتماثل .

هذه المنطقة ليست جديدة على التاريخ . فمنها انبعثت الحضارات والمدنيات التى حملت مشعل النور الذى مازال هذا الكوكب يستضىء به . ففيها ظهرت النبوات والرسالات . وفيها قامت حضارة الفراعنة ، وحضارة البابليين ، وحضارة الاشوريين . ثم جاءت الحضارة العربية الاسلامية فحملت الامانة وترجمت الآثار الاغريقية

وأضافت الى العلوم والفنون فى مدى ألف عام مزيدا من القوة ما دفع الحضارة الانسانية حتى أسلمها العرب فى الاندلس الى أوربا فى أول عهد النهضة ٠

أنهم العرب حملوا أمانة الحضارة وأذاعوها فى العالم ٠ من الصين الى اسبانيا ٠ وأقاموا دعائمها فى أفريقية والشام والعراق وايران ، واقاموا هذا اللون من الحياة الفكرية والاجتماعية والسياسية التى ما زالت تتفاعل فى كيان العالم كله ٠

والعرب وان كانوا قد فقدوا سلطانهم السياسى فى خلال القرنين الاخيرين فان تراثهم الفكرى وتقاليدهم الاجتماعية ما يزال يعرض نفسه على الزمن بالرغم من الزحف الاستعمارى الضخم فى ميدان العلم والحضارة والثقافة ٠ وبالرغم من العوامل المختلفة الجبارة التى قامت بها أوربا وأمريكا فى سبيل «تغريب» العرب ٠

ولا شك فى أن هذه المنطقة الضخمة التى اثرت فى العالم قديما وحملت اليه حضارة الاسلام واقامت ميادين الكرامة والعزة والحرية فى كل مكان منه انما تعود اليوم مرة أخرى لتأخذ بزمام موقفها الذى يؤثر كثيرا فى تطور الحضارة القائمة ويتفاعل مع الكيان الانسانى فليس دور العرب قد انتهى كما كان يظن من يرى صراع الاستعمار فى القرن الماضى أوائل هذا القرن ٠ وانما هو قد بدأ ٠ ان العرب اليوم يتيقظون لا ليتحدثوا عن ماضيهم وانما عن حاضرهم ٠ عن القوى الضخمة التى فى أيديهم ٠ قوى البترول والمطاط والخامات التى لا تعيش الحضارة بدونها ٠٠

ففى المنطقة العربية وحدها تتركز الآن القوى والخامات ٠ ومن ثم يعود العرب مرة أخرى ليسيطروا على سير المدنية ٠ ويكونوا عاملا فعالا فى اتجاهات العالم كله وحركاته ٠ فما من أمر من أمور السياسة العالمية الا وهو متفاعل مع هذه المنطقة متأثر بها مؤثرا فيها ٠٠

*

وشيء آخر أهم من هذا وأبعد أثرا ٠ يراه الباحثون والعلماء ٠ إن هذه الحضارة الغربية المادية تنهار اليوم وتتردى ٠ إنها فى المرحلة الاخيرة لها بعد ان بلغت غايتها وتكشفت فى اعماق قوتها عوامل فسادها واندحارها ٠

ومعنى هذا أن دورهذه المنطقة يعـود مرة أخرى لتأخـذ بلواء الحضـارة الانسـانية • لتبعث حضارة جديدة مستمدة من مقوماتها وامجادها وتراثها • هى الحضارة التى يفتقدها الانسان الحضارة التى تمزج بين المادية والروحية • بين العقل والقلب • بين القوة والرحمة • لن تكون هذه الحضارة ولن تبعث ولن تقوم الا فى الشرق • الا فى هـذه المنطقة العربية القوية الفتية التى تستيقظ اليوم على ماضى ضخم من الامجاد • وحاضر ضخم من المقومات ••

*

ومصر بعد هذا كله قلب العالم العربى غير منازع • وهى الخليقة بأن تتفاعل فى الكيان العربى • وأن تدفع العجلة بقوة الى الامام •

والشعب المصرى جزء من الامة العربية ، هذه العبارة التى وردت فى الدسـتور ليست الا حقيقة علمية واقعة • بعد أن أكد المؤرخون الاوربيون والعرب بانهم جميعـا جاءوا من قلب الجزيرة العربية •

وقد ظل الاستعمار فى الفترة الماضية يلقى فى روعنا اننا شعب فرعونى الاصل • ويدعونا الى التمسك بماضينا متعللا بالقول الصادق الذى يقول ان كل حاضر لا ماضى له لا مستقبل له ••
وظل يدعو اجزاء الوطن العربى الى حضاراتهم القديمة مطالبا ببعث الاشورية والبابلية والفينيقيـة الى حضـاراتهم القديمة مطالبـا رغبة منه فى تحطيم أواصر الوحدة وتمزيق شملها • ولا زلنا نذكر كيف دعا الاستعمار الى الفصل بين العـرب والبربر فى شـمال افريقيا •

ولكن الحقائق التاريخية الدامغة أثبتت ان الفراعنة والبربر جميعا عرب جـاءوا من جنوب الجزيرة العربية وان فى لغة البربر حتى الآن كلمات فرعونية •

والعلامة احمد كمـال الاثرى المصرى والاستاذ احمـد نجيب الامين العام للآثار قد أكدوا هذا فى مؤلفاتهم وقد سجل الاخير فى كتابه الاثر الجليل لقدماء وادى النيل المطبوع ببولاق سنة ١٣١١ هجرية قوله «من تأمل فى التماثيل المصرية القديمة المحفوظـة بدار الآثار المصرية علم يقينا ان هذه الامة من الجنس الابيض الاسيوى وليسـت من الجنس الاسـود الافريقى • وقال ان لتركيب لغة قدمـاء المصريين مشـابهة قوية بتركيب لغة آسيا (يعنى ما وراء العريش وسينا) وان كثيرا من أصل لغتهم مشتق من اللغة الارامية

واصل المصريين من الجنس السامي (اى الذى منه سكان بلاد العرب والشام والعراق) أتوا الى هذا الوادى من برزخ السويس . وربما وجدوا فيه طائفة من الزنوج فرت امامهم صوب الجنوب »

وأشار الى ان الهجرات الاخرى التى جاءت بعد ذلك كلها انما جاءت من وراء العريش وسينا . أو البلاد المقابلة للصعيد فى الضفة الشرقية من البحر الاحمر .

وان ثلث لغة قدماء المصريين تتفق مع لغتنا العربية العدنانية . ويقول السيد محب الدين الخطيب انه كلما هضمت مصر موجة من الموجات العربية تلتها موجة أخرى تجدد حيوية الدم العربى فى الاجسام المصرية ولو لم يتجه الجنس العربى الى مصر فى عشرات القرون لبقيت مصر وطنا للزنوج الاقدمين الذين اكتسحتهم موجات الهجرة العربية فدفعتهم الى آفاق بعيدة من قلب القارة السوداء ..

*

وهذه الآراء العلمية كلها تمزق الاوهام القديمة التى دعا اليها بعض كتاب مصر فى سنوات ١٩٣٠ وما بعدها والتى كانوا يرددونها متأثرين ببعض آراء المستعمرين .

وقد أجمع الكتاب والمفكرون على أن العروبة ليست قائمة على الدين أو الجنس أو التحالف وانما تقوم على أعمدة ثلاثة : اللغة والرابطة الروحية والتراث المشترك والجغرافية والاستراتيجية

فلا شك فى ان بيننا فى هذه المنطقة عامل مشترك هو هذه اللغة العربية التى اندمج فيها كل من يعيش فى هذه المنطقة كما فعل الاقباط والاكراد والسريان والبربريون فأصبحت لغتهم القومية . وقد حملها العرب المهاجرون الى امريكا وأقاموا بها هناك كيانا واضح المعالم .

وقد جرت محاولات ضخمة لتحطيم هذه اللغة وتمزيق أواصرها بتغليب اللهجات العامية وباتهامات مختلفة وجهت اليها . ومع ذلك فقد صمدت اللغة لهذه المحاولات جميعا حتى مرت العاصفة .

ومن ناحية الرابطة الروحية فان هناك ماض عريق طويل يجمعنا على صورة من صور الاعتزاز .

والتاريخ رابطة قوية ضخمة جمعت بيننا ومزجت بين هذه الشعوب مزجا وملأت نفوسهم بالكثير من المعانى الباقية المشتركة

أما من ناحية الجغرافية فانه مما لا شك فيه ان المنطقة جميعها متكاملة مترابطة تمثل وحدة طبيعية استراتيجية مادية ٠

ومن مجموع هذه العوامل تتكون الشخصية العربية والكيان العربي الموحد الذى يجب ان يحتفظ بقوته ورسالته في القرن العشرين ليكون عاملا فعالا متميزا في الحضارة والثقافة له طابعه الخالص الذى لا يستمده من الشرق أو الغرب انما يستمده من كيانه الذاتي ٠

ولا مانع لديه من ان يتفاعل مع التراث والثقافة العالمية يأخذ منها ويهضمها ويذيبها في كيانه ليزداد قوة على البقاء والحياة والاحتفاظ بكيانه الواضح الخالص ٠

اتهـــامات للأدب العربى المعاصر

عند ما اتصور الحياة الادبية فى مصر بعد ثورة ١٩١٩ وفى مطلع هـــذه الفترة التى ظهرت فيها هذه المدارس المجددة أجد شيئا ممضا يملأ نفسى ، ذلك ان فى فن هذه الحياة الادبية لون من البهلوانية العجيبة .

اننى أراه فى هذه المعـــارك المفتعـــلة والجرأة العجيـــبة التى قصد بها بعض الـــكتاب اغاظة الجماهير واثارتهم بآراء غريبة ، لم تكن هذه الآراء صادرة عن عقيدة أو اقتناع أو بحث، وانما قصد بابراز هذا الرأى معارضة حقيقة معروفة أو نقد لشخص تاريخى معـــروف يراد به اثارة ثائرة الرجعيين فنتج من هـــذا السجال والصراع شـــهرة تبهر الانظار وترفع الاقدار .

وأرى كيف كانت السياسة ترفع من أقدار كتاب السياسة المنتمين الى حزب يضـــع الناس كتابه وزعمائه موضع القداسة ولو واجه هؤلاء الكتاب الحياة الادبية من غير الصبغة السياسية أو لو تجردوا للادب لما أصابوا هذه الشهرة الضخمة والمـــكانة المرموقة .

وأرى هذه المناورات السياسية والبهلوانية واضحة فى اسلوب بعض الكتاب وطريقـــة عرضـــهم للموضوعات واظهار شخصياتهم بصورة الكبرياء والتعاظم الكاذب واستعمال لغة « نحن » المرزولة .

وأرى هذه الشتائم والقذائف المتبدلة التى رجهت الى عبدالرحمن شكرى والدكتور زكي ابو شادى مما دعا أولهما الى اعتزال الحياة الادبية والانقطاع عن الادب والاستقالة من وزارة المعـــارف ، وهجرة الثانى الى امريكا هربا من هذه الحملات العنيفة .

وهذه المـــدارس التى هاجمت شوقى والمنفلوطى والتى لم تكن فى حقيقة أمرها خالصـــة لوجـــه الادب وانما كانت باسم السياسة وباسم الحقد والاحساس بمركبات النقص .

واذا أخذنا على الرافعي أسلوبه المقذع في كتاب على السفود ، انما نعذره بعض العذر عند ما نتصور كيف قوبل أصحاب الاقلام العفة من بعض الكتاب بعاصفة من السباب ضاقت به نفوسهم ٠

وكذلك تحدى بعض الكتاب الذين يتحدثون عن انفسهم ويستطيلون على غيرهم فاذا أضفت هذه الصور الى بعضها برزت لك من مجموعها صورة قاتمه ٠

ولم يكن لادباء هذه الفترة مذهب واضح ٠ انهم كانوا جميعا من المدرسين أو اساتذة الجامعة ثم اشتغلوا بالصحافة واستقر بعضهم فيها وتركوا التدريس وغلب عليهم جميعا طابع الصراع الحزبي والسياسي ما عدا قلة منهم الزيات وزكي مبارك وتوفيق الحكيم ٠

ولقد كان هذا الجيل في مجموعه يحمل دعوى التجديد دون أن يظهر فنا جديد حتى غلب على مصر والشرق قبيل الحرب الثانية روح من النزعة الدينية وجهتهم الى اللون الاسلامي في كتابة التاريخ ٠ وكان ذلك في نظر بعض الناقدين اتجاه الى ارضاء الجماهير في الادب على أسلوب الارضاء في السياسة ٠ أو ان انطواء صفحة الاحزاب التي كانت مصدر الشهرة والتكريم لهؤلاء الكتاب في نظر الناس هي التي دفعتهم الى اتخاذ آفاق جديدة يترضون بها الجماهير ويكسبون بها قراء ٠

والا فما هو العامل النفسي الذي دفع عددا من الكتاب في فترات متقاربة الى الاتجاه نحو الادب الاسلامي ممثلا في تاريخ الرسول والصحابة والعهد الاسلامي الاول في حين أن هناك دراسات وكتابات تصور لنا مذاهب هؤلاء الكتاب على صورة معارضة لهذه الاتجاهات نفسها ٠

وهناك التقلب بين الاحزاب ٠ وسيطرة الحياة السياسية على الادب نفسه ٠ وكيف هاجم أحدهم مجموعة من السياسيين والكتاب الذين كانوا خصوما له يوما في حزبه ثم عاد فكتب عنهم ورثاهم بشعر رصين وتحدث عنهم في موضع التقدير والاعجاب ٠

وجرى هذا بصورة أخرى لكاتب آخر من كبار كتابنا ٠

وروح الحقد والحسد والتباغض والتنافر بين الكتاب المصريين في هذه الفترة تعد مثلا مروعا لما يقع بين أبناء الاسرة الواحدة ٠ ولا سيما اذا كانت بين المثقفين ورجال الفكر وأصحاب المثل العليا ودعاته بين الناس ٠

وهناك أدباء كانوا ملء السمع والبصر ، ولكنهم سرعان ما تركوا الادب ونسوه الى غير عودة بعد ان وصلوا الى كبريات المناصب ٠٠

وهناك أدباء برزوا فجأة في ميدان الكتابة بعد ان بلغوا سن الاربعين أو الخمسين • ولم يكن لهم من قبل كتابات معروفة الا كتب قليلة لا تضعهم في صفوف الكتاب الكبار •
ان بعض الكتاب الذين أصبحوا من المعدودين انما يتناول الادب وفق أسلوب ساخر تحس منه انه لا ايمان هناك بفكرة ولا هدف هناك واضح ولكنه نوع من التسلية أو السخرية بالجماهير والتلاعب بعقولها •

ومن الدراسة العميقة لهذه الفترة يمكن ان نوجه للادب العربي المعاصر وللادباء اتهامات شتى يمكن ايجازها في ان اللغو كان الصفة الغالبة على أدب هؤلاء الادباء وان الروح العلمية والتلغرافية التي تعطى المعنى في حدود محدودة من اللفظ كان لا يزال بعيدا • وان هذا الادب وهؤلاء الادباء كانوا بلا هدف وان السياسة كانت هي العمل الاول والشغل الشاغل لهم أما الادب فقد اتخذوه هواية لشغل أوقات الفراغ • ولسد يوم من أيام الاسبوع • ووصفت الجرأة التي عرفت في النقد بانها جرأة للشهرة لا للحق • وان الادباء بدأوا أقوياء فلما وصلوا ولمعت أسمائهم وفاض المال في أيديهم ضعف انتاجهم واعتمدوا على الاسماء الرنانة حين خلت اعمالهم الادبية من فن قوى •

ومنها ان هذا الادب انما هو مادة صحفية قدمت تحت ضغط مطالب الصحف في الايام المحددة والحيز المحدد • في اليوم الذي رأى الكاتب ان يفرغ نفسه من السياسة • وليست هذه الكتب دراسات أريد بها ان تظهر بصورة كاملة أو كتبت في ظل اتجاه محدد انما هي جماع مقالات كتبت على فترات مختلفة وعلى حالات من النفس متغايرة ووفق الظروف والحوادث والعواطف والخصومات وأمواج الحقد السياسي والنضال• وحسب حالات المزاج المعتدل والمنقبض ثم جمعت بعد ذلك•

ومن ذلك ان كتاب أوقات الفراغ كتبت بعض فصوله سنة ١٩١٢ والاخرى سنة ١٩٢٩ فأين هذا البون الشاسع بين أفكار الكاتب واتجاهاته في خلال هذا العمر الطويل الذى قطعه •

أو هذا كتاب يعترف مؤلفه في مقدمته انه ارغم على جمع هذه الفصول ارغاما وانها ليست ذات وحدة واحدة وانها في حاجة الى كثير من المراجعة واعادة النظر

وجملة القول ان أدبائنا قد صنعتهم الشهرة السياسية قبل ان يصنعهم الادب • وهم لم يتجردوا للادب خالصين الا بعد ان

ماتت سوق السياسة فى الحرب العالمية الثانية (٣٩ـ٤٦) ٠

وقد اجمع النقاد بأنه ليس كل هذا التراث يستأهل الخلود ٠ وان الجانب الخليق بالتقدير قليل وضئيل وانه ليس فى مجموعه الا معانى مكررة ٠

وان كل أديب كان يدعى انه صاحب الفضل على الادب ٠ وان دعاة الجديد لم يكن لهم منهاج معين وانهم ظلوا الى سنة ١٩٣٣ دون أن يحددوا اتجاهاتهم فى الكتابه ٠

ويمكن أن يقال ردا على هذا بأنه لم يكن من المعقول ان يتجرد أديب من هؤلاء لصناعة الادب لان الادب كان ولا يزال لا يطعم العيش ٠ ولقد تعب الذين جرءوا على ترك وظائفهم من اجل الصحافة والكتابة كالسباعى والمازنى وندموا على ذلك ٠ وانى لازلت أذكر عبارة المرحوم زكى مبارك لى سنة ١٩٣٣ حين قال ان من يشتغل بالادب لا يملك قوت يومه ٠

وقال النقاد ان الكثيرين من هؤلاء الادباء كانوا انتهازيين فى حياتهم مما لا يتفق مع المثل العليا فعاشوا فى كنف الاحزاب وكانوا ينتقلون من حزب الى حزب ٠ ومن وضع الى وضع ليحققوا مطامعهم الخاصة مما يختلف كثيرا مع المثل العليا التى كانوا يدعون اليها وان بعضا منهم قد اصطنع النفاق

ونحن لا نستطيع ان نقبل هذه الملاحظات كلها أو نسلم بها بصفة مطلقة فان التحول فى المذهب السياسى أو الادبى ليس عيبا وان طبيعة الانسان المفكر تتحول مع الزمن ومع اتساع الثقافة وقد كان من الطبيعى ان يعمل الكتاب فى السياسة كعمل رئيسى وان يزاولوا الادب كفن فى أوقات فراغهم ٠

وقد أدى هذا الى ان الكاتب من الكتاب قد يكون على رأى من الآراء ولكن الصحيفة كانت تطلب منه ان يكتب شيئا لا يوافق هواه ٠ فهو مضطر لان يكتب هذا الشىء وان يوقعه باسمه أو لا يوقعه ومضطر لان ينكر عاطفته وعقيدته ٠

وعندى ان هذا اللون من الادب قد انتهى بعد ان انطوت صفحة ذلك العهد ٠ وان أدبا جديدا ثوريا يوشك ان يطلع فجره ٠٠

ناقص من اصل المصدر

١٣ الى ٢٠

ناقص من اصل المصدر

١٣ الى ٢٠

ناقص من أصل المصدر

١٣ الى ٢٠

ناقص من اصل المصدر

١٣ الى ٢٠

أمرت أن أكتب ما شــهدت وما سمعت وما علمت ٠ وما اعتقدت في الحوادث العرابية ٠ فأى احسان أجل وأوفى من رغبة مليك فى كشف الغطـاء عن حــادثة ألمت بعرش الدولة ٠ واضطربت لهــا أركان الحكومة » ٠

ويقول مؤرخه الاستاذ احمد حافظ عوض الذى كان يعمل في ذلك الوقت محررا فى المؤيد وكان وثيق الصلة به « وعندى ان علاقة الشيخ محمد عبده والمستر بلنت كانت من الوســائل التى مهدت للشيخ محمد عبده الاتصال الوثيق باللورد كرومر ٠ ذلك الاتصــال الذى كان له ما كان من الاثر فى تاريخ مصر السياسى » وقال أيضا « ان الخلاف بين محمد عبده والخديو هو الذى ألجأه الى اللورد كرومر ٠ ومن ثم توطدت بينهما دعائم مودة وتقدير متبــادل بين الرجلين ٠ وصار فى استطاعة الشيخ ان يؤثر على ممثل الدوله البريطانية »

وبهذه المدرسة وضعت الاسس للحياة المصرية الجديدة فى ميدان الدين والسياسة والاجتــماع ٠ مدرسة تكونت فى عهد كرومر وفى حمــاه وفى صــالون نازلى

وقد حدث بالفعل بعــد ثورة ١٩١٩ ان تقدمت هذه المدرسة الى الحكم والسلطان ووضعت يدهــا على كل شيء ٠ واستمر سلطانها ممتدا الى عام ١٩٥٢ حين سحقت الثورة هذه المدرسة الضــالة ٠ ونحتها عن السلطان ٠

—*—

رجل الشارع ...!

ودوره فى الكفاح الشعبى

عند ماأشرق فجر ٢٣يوليو محققا أكبر نصر شعبى فى تاريخ مصر فى خلال قرن ونصف قرن كان هذا النصر حقيقة نصرا لرجل الشارع فان هذا الجندى المجهول الذى ظل يكافح الظلم خلال القرن التاسع عشر والنصف الاول من القرن العشرين انما كان ينتظر فجرا جديدا يشرق على مصر ..

وقد تحقق له ذلك باوفى مماكان ينتظر اذ جاءت الثورة على يد أبناء الشعب الذين جرى فى عروقهم دم الفلاح المصرى فكان هذا أكبر نصر لرجل الشارع.. ولذلك رغبنا أن نكتب هنا صفحة مجيدة من دور رجل الشارع فى الكفاح الشعبى ..

كانت السياسة خلال العهد المظلم الطويل المدى لها أكثر من وجه فى تحطيم معنوية الامة ، ولكن كان أبرز غاياتها أن يظل رجل الشارع جاهلا معزولا عن الحقائق لا يعرف شيئا .

ولم يكن الشعب فى حسابها فى أى وقت من الاوقات انه قوة ذات بال أو انه « السيد» الذى يخدمه الحكام والرؤساء. وظل الشعب يئن من الضربات المتوالية التى تكاتف على توجيهها اليه الاستعمار والطغاة والحكام ومع ذلك بقى قويا ، تتوارى روحه القوية وراء ظلمات العوامل التى دبرت لتحطيم معنويته ، ثم لا تلبث ان تظهر قوية حية .

ومع ان الشعب هو الذى حطم الفرنسيين بقيادة عمر مكرم، وهو الذى هزم الانجليز فى حملة فريزر ، وهو الذى وقف وراء عرابى . وهو الذى اعلن ثورة ١٩١٩ وقادها وقدم نفسه وقودا لها .. فقد مضت المدرسة التى تولت الحكم بعد ثورة ١٩١٩ بالتنكر له وتجاهله وحال من بيدهم الامر دون ظهوره على المسرح أو مباشرة حقه الطبيعى فى الحياة .

وظل رجال الاحزاب خلال ثلاثين عاما كاملة يخدعونه

ويجرونه الى مطامعهم الخاصة ويستغلونه أبشع استغلال . ولكنه فهم أخيرا كل شيء ، وتكشفت أمامه الحقائق . وكان الفضل فى هذا لرجال قلائل ، صدقوه ، وصارحوه فكان منهم ومنه بذرة الانتفاضة الاخيرة ، وعامل تحطيم الدولة الغاربة

لقد حرص الاستعمار على أن يفصل بين الحكام ورجل الشارع ، وان يكون هذا الفاصل ضخما لا يمكن من الالتقاء أو التفاهم أو التجاوب واقعدت هذه الهوة زعماء « الغرف الدافئة » القدرة على التعرف على حاجة الشعب أو فهم نفسيته ومرت بمصر فترة اسقط فيها الزعماء والحكام هذا الشعب من حسابهم ..

واكلت الثورة - ثورة ١٩١٩ - رجل الشارع الوفى وقضى على مئات بالموت بين اعدام وقتل برصاص الانجليز وظهرت طبقة لم تشترك فى الثورة تولت مصائر البلاد والعباد ، هذه الطبقة التى صنعها الغاصب نفسه خلال الفترة الطويلة ، منذ أنشأ حزب الامة الذى بدأ بمهاجمة كل اتجاه وطنى ودعا الى التهدئة .

وما ان وقعت ثورة سنة ١٩١٩ حتى تقدمت المدرسة التى نشأت فى أحضان حزب الامة والجريدة وكرومر منذ سنة ١٩٠٦ وظهرت فجأة وفى قوة وقبضت بيدها على ناصية الامور .

وخدع رجل الشارع خلال هذه الفترة ، فقد اضطربت الاوضاع ، ووضعت الوطنية الصريحة الواضحة على الرف ، وبدأت السياسة تعمل بمناوراتها وتأويلاتها . واحتجز رجل الشارع فى حدود ارزاقه ومصالحه . وخوف فخاف ، ورأى مظاهر الظلم والاعتساف فوقف متوجسا مترقبا .

ورأى رجل الشارع زعامات وبعد ان كان يهتف باسم الوطن تقوم على شيء أشبه بالوثنية ، أصبح يهتف باسم فلان وفلان وأصبح يسمع ان الانجليز « خصوم شرفاء معقولون » . وان كسب صداقة الانجليز غنم تهون معه حقوق البلاد .

وبعد أن قاطع رجل الشارع بفطرته لجنة ملنر ، وبعد ان حال بين الزعماء ومناصب الحكم . بعد الثورة . رأى زعماءه يقبلون الجلوس على مائدة واحدة مع الخصم للتفاهم .. والمساومة ، ورآهم يقدمون مشاريع معاهدات تثبت الاحتلال .

ثم رأى كيف انقسمت الامة

الى أحزاب وفرق .. ووجد جواخانقا من الخصومة الداخلية لا يتورع اصحابه من استعمال أى سلاح .. فى سبيل مطامعهم الخاصة .

وفقد « رجل الشارع » الطريق الواضح ، واصبحت الامور فى نظره مساومة بين هذا الحزب أو ذاك .

وحرصت الاحزاب على أن يعيش رجل الشارع فى الظلام حتى لا يواجه الضوء ، الذى يكشف خيانة الخائنين .. وألقيت اليه الحقائق مزورة ، والمناهج خاطئة . وأقيم بينه وبين حقائق الامور ستارا كثيفا .. هذه الحقائق التى لها فى كل معسكر وجه ، وعند كل فريق وضع .

وفهم رجل الشارع أخيرا . كل شيء ..

*

ولكن هذه المرحلة الطويلة لم تمر دون ان تسجل لرجل الشارع ، جهادا فقد كان لا يلبث ان يرى الظلم حتى يثور وينتفض ، فيأتى صنائع الاستعمار والقصر فيحطمون روحه المعنوية ..

ومن الشارع خرج رجال لهم فى تاريخ مصر صفحات بيضاء ، لم تكتب فى العهد الماضى على وجهها الصحيح ، ولم تنل ما هى جديرة به من تقدير ..

من الشارع خرج مصطفى كامل ، ومحمد فريد ، وعبد العزيز جاويش ، وعمر مكرم ، ومحمد كريم ، وعرابى ، وأمين الرافعى ، وعبد الرحمن فهمى وهذه قصة كفاح الشعب ..

*

بدأت روح الشعب فى وضوحها وقوتها منذ حملة نابليون .. فقد مضى الشعب بزعامة عمر مكرم فى أعمال المقاومة الشعبية ، فى كل مكان .. ولم يتوقف عنها رغم كل الوعود البراقة التى بذلت له ..

ولم يذعن المصريون مطلقا للحكم الفرنسى على الرغم من ان نابليون حاول ان يستهويهم ويتملقهم بمختلف الوعود .

وعند ما أقام نابليون حكومته أشرك فيها بعض شيوخ الازهر وعلمائه ، وابتكر نظام الديوان ، ولكن الشعب ظل ساخطا ، الى ان تحول سخطه بعد ثلاثة شهور الى اعصار من المقاومة ..

وفى ٢١ أكتوبر ١٧٩٨ ثار القاهريون على الفرنسيين ، وأقاموا المتاريس فى كل شارع ورفع عمر مكرم الراية وجمع حولها الناس . وأشعل السيد

محمد السادات ثورة أخرى سنة ١٨٠٠ وعمل حسن طوبار حركة التفاف حول الاسطول الفرنسى فى ١٦ سبتمبر سنة ١٧٣٨

ووقف محمد كريم موقفا مشرفا غاية التشريف فقد طلب قائد الحملة اليه ان يسلم المدينة بدون دفاع فرفض . وظل يقاتل حتى انهزم

وقد أعاد له نابليون سيفه تقديرا لما أبداه من شجاعة لا حد لها فى الدفاع عن الاسكندرية

ولكن السيد محمد كريم لم ينم ، وظل يثير الاهالى حتى انه نظم من عربان البحيرة فرقا للمقاومة لتغير على فرق الجيش الفرنسى أثناء انتقالها من القاهرة والاسكندرية . فالحق بها خسائر ضخمة مما اضطر نابليون بعد شهور الى القبض عليه وارساله الى القاهرة حيث صدر الحكم عليه بالاعدام الا اذا افتدى نفسه بمبلغ باهظ ، ورفض كريم المساومة رغم ثرائه وقال اننى أضحى بنفسى فى سبيل وطنى

وكان اعدام السيد كريم الشرارة الاولى فى الثورة المصرية على الفرنسيين التى انتهت بانسحابهم

وقاوم الشعب حمله فريز فى رشيد سنة ١٩٠٧ فقد واجه الوطنيون القوات البريطانية التى أنزلها فريزر وحاصروها فى شوارع المدينة وألقوا علها القنابل حتى هزموها ودفعوها الى الفرار والعودة الى البحر وتوقيع اتفاقية جلاء وقد حدث كل هذا قبل ان تصل القوات الرسمية التى كانت لا تزال فى الطريق

وكانت حركة عرابى من أضخم حركات المقاومة الشعبية فقد تطوع للانضمام الى عرابى عدد كبير من الرجال والنساء عملوا فى خدمة المحاربين ومساعدتهم وتقديم الذخائر الحربية ونقل الماء وحمل الجرحى وتضميد جروحهم ونقلهم الى المستشفيات ، ولولا عامل الرشوة والخيانة وأعوان الخديو توفيق لما انهزم عرابى

وتنكرت السلطات والهيئات الحكومات المتوالية لعرابى خلال سبعين عاما ، فحرمت الاحتفال بذكراه أو الحديث عنه أو كتابة تاريخه على وجه صحيح .

وظل فى نظر بعض المؤرخين يوصف بأنه « الخائن » الذى قاوم العرش العتيد !

وتعد استقالة شريف باشا فى ٧ يناير ١٨٨٤ من

وثائق الشرف فقد احتج على سلخ السودان عند مصرعندما طلبت الحكومة البريطانيةعقب استفحال ثورة المهدى اخلاء السودان وسحب الجيش المصرى منه وقال كلمته المشهورة « اذا تركنا السودان فالسودان لا يتركنا »

وسجلت الصحافة موقفا مشرفا لصحيفة وشاعر .

قدوم ولكن لا أقول سعيد
تذكرنا رؤياك أيام نزلت
رمتنا بكم مقدونيا فأصابنا
فكم سفكت منا دماء بريئة
وكم ضم بطن البحرأشلاءجة
وكم صار شمل للعباد مشتتا
وسيق عظيم القوم منا مكبلا
فما قام منكم بالعدالة طارق
وعان يقصر الملك أصبح بائدا
ويندب فى أطلاله اليوم ناعي

وحاربت الاحزاب السياسية مصطفى كامل، والحزب الوطنى حربا عوانا ، وقال عنه العقاد «انه شحاذ يلبس الردنجوت»

أما فريد فقد سجن ورفض ان يلتمس العفو من السجن وكان قد حكم عليه بالسجن ستة شهور لتقديمه ديوان وطنيتى للشيخ على الغاياتى

وعند ما دعا الى الدستور . وجمع عرائض موقع عليها من ٦٠ الف مصرى ومصرية وقدمها الى رئيس الديوان الخديو

فقد نشرت صحيفة الصاعقة قصيدة تهنئة مرفوعة لسمو خديو مصر لمناسبة عودته من الاسكندرية الى العاصمة فى ٤ نوفمبر سنة ١٨٩٧

وناظم هذه القصيدة هو المرحوم مصطفى لطفى المنفلوطى وقد حكم عليه بالسجن ستة أشهر

وملك وان طال المدى سيبيد
علينا خطوب من جدودك سود
مصوب سهام بالبلاد سديد
وكم ضمنت تلك الدماء لحود
تمزق أحشاء لها وكبود
وخرب قصر فى البلاد مشيد
له تحت أثقال القيود وئيد
ولا سار منكم بالسداد تليد
من الظلم والظلم المبين مبيد
له عند ترديد الرثاء نشيد

حاول الخديو تقديمه الى المحاكمة بتهمة الخروج على نظام الحكم ، وأعدت العدة لذلك فنصحه أصدقائه بالهجرة ففر متنكرا الى أوربا

ولما وصل الى الاستانة حاول السلطان تعيينه فى احدى الولايات مكافأته على بعض خدماته فقال كلمته المشهورة : **انني ما خرجت من بلادى للبحث عن وظيفة ولكن لاجاهد فى خدمتها واسعى لتحقيق أمانيها حتى اموت**

وكان يضع على جاكتته شارة مكتوب عليها « مصر للمصريين » وقد أرسل اليه سعيد حليم لينزع هذه الشارة فرفض فلما هدد بالنفى وقال « ان جميع البلاد تتساوى عندى ما دمت قد حرمت من الاقامة فى مصر »

وعند ما هاجر الى المانيا وضاقت أمامه وجوه الرزق كان لا يأكل الا مرة واحدة فى اليوم وسكن غرفة منفردة بالدور الخامس فى أحد المنازل فأصيب بمرض الاستسقاء الوبيل . وأمضى ستة شهور وهو يعانى الام هذا المرض . وكان يغمى عليه وعند ما يفيق يسأل عن أخبار مصر وحال الثورة فيها .. وكان يردد قوله : **اننى لا اجزع من الموت فان الموت حق لابد منه ولكنى اجزع ان أموت قبل ان أرى مصر حرة مستقلة .**

ولما علم ان الناس تصايحت باسم « سعد » رفض ان يذكر ماضيه بسوء ، وأحب ان يجتمع الوطن على أى انسان . وأرسل الى سعد عند ما أجبرت مصر الانجليز على ذهاب الزعماء الى باريس برقية **يقول فيها : أحيى فيكم الوطن الغائب وارجو لكم كمال التوفيق**

وخشى سعد ان يرد عليه حتى لا يظن الانجليز انه صادق عدو الامبراطورية اللدود . وذهب الطلبة الى باريس يذكرون سعد بأن المرض قد اشتد على فريد . وان الفقر أنشب أظافره فيه **فقال لهم : هل تريدون منى أن أرسل مال الامة الى رجل مجنون .**

وعند ما اتصل به ممثلو الهند وايرلندا . وطلبوا اليه التوجه الى باريس قال لهم : أأذهب الى سعد فى باريس. **اننى لا أريد ان أفرق جهود الامة وانما أريد ان استشهد كجندى فى ميدان القتال !**

هذا هو فريد الذى ليس له تمثال. ولا يذكر حين يذكر الا كاسم من الاسماء واذا ذهب تاريخ فريد كله وتبخر ... على نفاسته وعظمته وتضحياته .. فلن يستطيع أحد أن ينسى منه موقفه من الخديو عند ما تحولت بريطانيا عن سياسة الوفاق فى يولية سنة ١٩١١ فقد أرسل له الخديو يقول انه يريد ان يتعاون معه ، وان يعيد الكرة لانه يريد ان يقاوم اللورد كتشنر ممثل بريطانيا الجديد **فقال فريد اننى على استعداد لان أتعاون مع أى مصرى ،**

غير ان الخديو لم يقدم لبلاده ما تنتظره .. يوم يقف الخديو فى وجه بريطانيا سيجدنى بجانبه ، من غير أن يطلبنى أو يدعونى ، ولكنى لا أريد ان يكون الحزب الوطنى وسيلة يلوح بها للانجليز حتى يعودوا الى سياسة الوفاق . وقال ان على الخديو ان يضع للشعب دستورا

وهاجر فريد فى ٢٦ مارس ١٩١٢ وأرسل له الخديو فى أوربا ، فكان رده هو نفس الرد

وأين سعد من فريد ... اذا كان هناك ثمة مقارنة !

لقد كان سعد أكذوبة **ضخمة** ، لم يكن جديرا بأن يدخل التاريخ حتى من أبواب الخدم والسعاه ، ولكنها الموازين المفتعلة ، والتيارات الرجعية التى صنعها الاستعمار استطاعت ان تجعل من سعد « بطلا »

سعد ، ومدرسته التى تنكرت لفريد ولم تقم ازائه بحق من حقوقه ، حتى أحضر جدثه الطاهر الى مصر أحد التجار على نفقته الخاصة

لقد ضحى فريد بكل ما يملك .. فقد كان يملك عند ما اتصل بمصطفى كامل الف ومائتى فدان .. وبضع عمارات وبضعة ألوف من الجنيهات

وقد ضحى بها كلها واذابها فى سبيل مصر ، فلما خرج خوفا من طغيان السلطان الجائر ، لم يترك لاسرته شيئا

... ضحى فريد بكل ما يملك ، بينما جاء زعماء بعد ذلك من مدرسة سعد زغلول كانوا فقراء فملكوا أضعاف ما ضحى به محمد فريد ..

ومن النماذج التاريخية .. نماذج الوطنية الشعبية الخالصة ، تأسيس الجمعية المصرية فى أوروبا ١٩٠٦ برئاسة المرحوم على سرى . وقد انتهز الطلبة فرصة زيارة الخديو السابق عباس الى جنيف سنة ١٩٠٨ ، وخاطبوه فى رغبة البلاد فى الحصول على دستور فقال لهم بالحرف: « أنتم تطلبون المستحيل ، ان مصر لا زالت فى المهد ، ولا تستحق الدستور ، فذكره على الشمسى بأن والده توفيق أعطى الدستور للبلاد منذ عشرين سنة فاحتد وقال: ان والدى كان يحسن الظن بالمصرى ولم يمكث كثيرا فى الحكم حتى يتمكن من درس أخلاقهم ..

وكان من هذه الجمعية ابراهيم الوردانى ، ومحمد نافع . ومحمد غالب

ويتصل بتاريخ فريد ، تاريخ حفنة من الابطال ، على الغاياتى وعبد العزيز جاويش هذه المدرسة التى كانت البذرة الصادقة الخالصة لثورة ١٩١٩ وعلى رأسها عبد الرحمن فهمى الذى قدم ومعه ٢٧ وطنيا بتهمة مقاومة الانجليز منهم احمد جاد الله وشفيق منصور ، وعبد الفتاح عنايت

وامتدت روح الثورة ولم تقف . امتدت فى سلسلة من أعمال المقاومة والثورات وازعاج البريطانيين .. وقتا طويلا .. ومن الذين تعرضوا لهذه الحملة بعض من كانوا خصوما لمصر من الحكام أمثال محمد سعيد ، ويوسف وهبه وسعد زغلول

والواقع ان أبناء مصر لم يكفوا عن استكمال حقوقهم ، ورد العدوان عن دستورهم غير المكتوب .. ودستور حرية أفرادهم ، وشرف عقائدهم ، والتزام الحاكم لصالحهم . فالغلاف الخارجي لحياة المصريين فى القرنين الماضيين غلاف كاذب خادع

وعبد العزيز جاويش لا يمكن ان ينسى

فر من تركيا مع محمد فريد وعبد الحميد سعيد والدكتور احمد فؤاد سنة ١٩١٨ بعد ان أرغمت تركيا على عقد الهدنة ، ووصلوا الى المانيا بعد مسيرة ١٥ يوما ، ثم سويسرا

ووقف وقفته المشهورة عند ما بعثت الحكومة — أو بعث سعد زغلول — قانون المطبوعات القديم ، وسجن عند ما كتب عن ذكرى دنشواى وموقف بطرس غالى وزملائه أعضاء المحكمة المخصوصة من محاكمة الوطنيين فى دنشواى

وقد اشتغل بتدريس اللغة العربية فى اكسفورد — ووضع كتاب « الاسلام دين الفطرة » ومن عباراته فى مقال اللواء عن دنشواى سنة ١٩٠٩

« سلام على تلك الارواح البريئة التى انتزعها بطرس غالى رئيس المحكمة المخصوصة بقضائه من مكامنها فى أجسامها ، كما تنزع سلوك الحرير من خلال الشوك وقدمها قربانا الى ذلك الجبار الظالم والغاصب القاهر القائم فى بلادنا بنفاقنا وتفرقنا

سلام على أولئك الذين وقف الهلباوى فثار فيهم ثوران الجبارين ثم اثنى على رقابهم فقصمها . وعلى اجسامهم فمزقها . وعلى رفاتهم فأرسلها

تجرى على الارض تلعن الظالمين .
فقام الهلباوى مقامه المشهود وطلب من قضاة المحكمة الظالمة ان يحشر أهل دنشواى فيقدموا قرابين الى هيكل الاحتلال . فما لبث رئيس المحكمة بطرس غالى وزميله قاضى دنشواى احمد فتحى زغلول ان استهوتهما الاموال واستغوتهما المناصب واسترهبتهما عظمة الاحتلال فانطقهما بذلك الحكم الجائر لرغبة فى الالقاب والمناصب وعوز النفس الى الشعور بالواجب » .

*

ويتبقى فى هذه القائمة الضخمة ، أمين الرافعى ..

الذى كان مثلا للصحفى المثالى المجاهد . والذى تعرض من أجل مبدأه للاخطار وآثر الفقر والاضطهاد فى سبيله . وقد رفض الكثير من رغبات الساسة الذين كانوا يحاولون اغرائه بأن يضعوا تحت تصرفه ما يشاء من الاموال فى سبيل مسايرتهم فى مبادئهم !

لقد عطل أمين الرافعى جريدة العلم عند ما اعلنت الحماية على مصر حتى لا يضطر الى أن يطالع قرائه بها ، وعلى صدرها هذا النبأ . وكان عدوا لسعد، ولكنه طالب بعودته من المنفى . وبالرغم من خلافه معه كان سعد يرجع اليه كفقيه .

هاجم سعدا فى أوج قوته، وخالفه فى الرأى جريئا متمكنا ولم يبال « بالرعاع » الذين ساقهم اليه ليحطموا دار جريدته والذين هاجموه وهو يصلى فلم ينصرف عن صلاته وحطم بقوة ايمانه شهوة طغيانهم .

ورفض ان يكتب وسيف الرقابة العسكرية البريطانية مصلت على البلاد .

وهو الذى أفتى بان يعقد البرلمان فى الكونتننتال على هيئة مؤتمر بعد ان حله الملك فؤاد وهى فتوى دستورية لم يتنبه لها سواه .

*

ويأتى بعد هذا ذكر عبد الرحمن الرافعى

الرجل الذى كتب تاريخ مصر ، بايمان ، دون أن يخشى أحدا ..

لقد كتب « الرافعى » تاريخ الملك فؤاد تحت سمع الملك المخلوع وبصره . ولقى من سخطه ما يمكن أن يوجهه ملك طاغية مستبد الى مؤرخ حر الرأى .

وكذلك كتب تاريخ اسماعيل فى عهد فؤاد ، وكشف عن الاخطاء التى وقع فيها ولم يعبأ عبد الرحمن بما يصيبه من

جراء ذلك فقد وطد نفسه على الا ينال شيئا من النعم التى كان يحرص عليها الناس ٠

وقد حرص الوفد على غبنه، وحرصت الحكومات المختلفة - قبل الثورة - على تجاهله واهماله٠ وحرمته طوال حياته من أى نوع من أنواع المعونة الادبية التي تقدمها الدول عادة الى المؤرخين والكتاب ٠

وقد أقصى عن الحياة البرلمانية سنة ١٩٢٦ مع انه كان أحد الذين وضعوا أسس الائتلاف

وفى سنة ١٩٣٥ بعد ان اشترك فى الائتلاف ، وجاء دور توزيع المقاعد، كان العضو الوحيد فى الجبهة الوطنية الذى لم ينل مقعدا فى مجلس الشيوخ ولا فى مجلس النواب فى حين ان الوفد جامل الاحزاب الاخرى المؤيدة للمفاوضة والمعاهدة ٠

ولا ينسى لعبد الرحمن الرافعى انه هاجم معاهدة سنة ١٩٣٦ هجوما عنيفا فى الوقت الذى كانت الدنيا كلها تهلل لها وتدعو الى النتائج العظيمة التى تحققت من توقيعها ٠

*

وبعد فان هناك أيضا « المصرى المجهول » ٠٠

الذى لا يعرف اسمه ٠٠٠ هذا الذى وقف وراء كل جهاد وكل حركة ٠٠ وكافح ولم يعرفه أحد٠ هو الذى استشهد فى الثورة العرابية وثورة ١٩١٩ وفى فلسطين وفى القنال ٠٠

هو الذى قامت على اكتافه كل الاعمال الكبرى ٠٠

وهو الذى حفر قناة السويس وصد الفرنسيين بالمتاريس فى شوارع القاهرة ٠ وهو الذى هزمهم فى دمياط ٠

هذا الذى وقف بعيدا عن الاضواء وتنكر له الطغاة والحكام الظلمة٠٠ فى كل ادوار تاريخ مصر ٠ الذين كانوا يرون مصر مزرعة لهم ٠

جحــا ...

يعد جحا فى نظر بعض المؤرخين من الشخصيات الخرافية . بينما يجمع الكثيرون على انه شخصيات متعددة عاشت فى أماكن مختلفة وبلاد متباينة فهناك جحا العربى وجحا التركى ، وتتردد أسماء ابو الغصن دجين بن ثابت فى الكوفة واحمد المعطرى فى صنعاء وخوجه نصرالدين جحا الرومى وارتبط اسمه بتيمورلنك وابو مسلم الخراسانى .

وقد أصبح علما على الفكاهة العربية وأضيف اليه كل طريف من النكتة وهو فى فكاهته أما أبله مخبول أو ماكر خبيث ولكنه على كل حال يمثل الجانب الذى لا يمشى مع العقل ولا يجرى مع طبيعة الامور ويفاجىء الطبع الانسانى بما لا يظن انه يقع فى حكم الحياة الجارية .

وهو ساخر فكه يبدو فى صورة الرجل المستهين بالامور الذى لا تستخفه الاحداث . ولكنه ينطوى على نفس عميقة الفهم تتأثر بالامور وتحس بها احساسا صادقا .

وهو فى مجموعة ما اثر عنه من نوادر عمل قاضيا واماما وتاجرا وفلاحا . وتزوج عشرات المرات .. وكان شغوفا بصداقة حماره . وقد اثر عنه انه سار فى الارض ورحل وتنقل فى مختلف البلاد يحمل خرجه فوق كتفه ويركب حماره ويدعه يسير

ويصور جحا فى قصصه صورة الرجل الذى يقاوم الظلم ويسخر من الحكام الجبابرة وهو لون من التنفيس الذى تلجأ اليه ضمائر الشعوب للسخرية من عصور الظلم وانتقاد تصرفات الحكام الظالمين . والنقد الاجماعى المر للاخطاء التى يزخر بها المجتمع .

وتصور شخصية جحا صورة زوج المرأة العنيدة المتعبة ويرسم حلقات الكيد والخلاف ومفارقات الانانية والجهل

وهو رجل أكول خطاف يحب الموائد الفخمة ويغشى مجامع الطعام فاذا دعى الى حفل صام يومه حتى يهيىء معدته للطعام الدسم الذى ينتظره .

وفى مجلس القضاء يبدو جحا فى صورة القاضى الذى يتصرف بالعرف أكثر مما يحكم بالقانون .

وتبدو فى تصرفاته الواقعية فهو يسخر مثلا من الحكمة التى تقول ان

القناعة كنز لا يفنى . فيقول انها حقا كنز ولكنها لا تطعم جائعا ولا تكسى عاريا . ولا توجد الا عند الذين لا يجدون .

وفى فكاهاته اشادة بالمظهر فيروى كيف ضرب عند ما ذهب الى مائدة الحاكم بثيابه الممزقة . فلما عاد ولبس ملابسه الفخمة استقبل استقبالا باهرا واجلس فى صدر المائدة .

وهو رجل حلال للمشاكل فى مجتمعه قال للرجل المجنون الذى حمل الغلام الى أعلى المأذنة وهدد بالقائه انه سينشر المأذنة بالمنشار فخاف المجنون واسلم الغلام .

وقال لبائع الشواء ان رنين قطعة الفضة هو ثمن لرائحة الشواء .

وهو يصور شخصية باهرة ، هذه الشخصية التى يستحى صاحبها من اللص عندما يهاجم بيته ليسرقه ، لان بيته خلو من أى شيء يمكن تقديمه للص . وهو أيضا المخبول الذى يشترى البيض تسعة ويبيعه عشرة .

وهو يمثل المفارقة فى بعض فكاهاته فهو يرفض ان يقول كلمة « ان شاء الله » وهو ذاهب الى السوق ليشترى الحمار لان النقود فى جيبه والحمار فى السوق فاذا تفقد نقوده فوجدها قد ضاعت يقول هذه الكلمة مع كل عبارة تصدر عنه .

وتبدو هذه المقارنة عندما قالت له أمه : احرس الباب الى أن أحضر ، فما كان من جحا عندما تغيبت أمه طويلا أن خلع الباب وحمله على كتفه وذهب به اليها ..

وقصة جحا مع ابنه وحماره قصة فيها مرارة الواقع وسخرية الناس فلا هو ارضاهم ان يركب هو ولا أن يركب ابنه ولا أن يركبا معا ولا أن يسيرا معا .. ولا أن يحملا الحمار .

وتتمثل فى حياة جحا سخريات الحياة . ومن ذلك ان جحا اشترى عشرة حمير فركب واحدا منها وساق التسعة أمامه فلما عد الحمير وجدها تسعة فنزل عن حماره وعدها فوجدها عشرة . فلما عاد يركب حماره وجدها تسعة مرة أخرى .

ومثل ذلك عندما سرق جحا الجزر ووضعه فى قفته فلما ضبطه صاحب الحديقة قال له انه لم يسرقه وانما هى الريح التى جعلته يندحرج وكلما أمسك جزرة خرجت فى يده .

ومن هذه السخريات ما رآه فى المنام من أن أحدهم يعطيه ٩٩ جنيها

فرفضها وقال لا بد من المائة فلما استيقظ اغتم واغمض عينيه ليقول للرجل الذى رآه فى المنام : هات ٩٩ فقد رضيت بها ٠

وهو يبادل الناس سخرية بسخرية فقد جاءه جماعة يقولون له اذبح لنا هذا الخروف لان القيامة ستقوم غدا٠ فرضى لهم بذلك ٠ فلما أوقدوا النار حمل ملابسهم والقاها فيها٠ فانزعجوا لذلك وسألوه فقال أليست القيامة ستقوم غدا اذن فما حاجتكم بها ٠

وهو يمثل الطبيعة الانسانية فى الحكم على الامور فاذا كانت الحائط التى بال عليها الكلب هى حائط الناس فهى تهدم وتبنى سبع مرات فاذا كانت الحائط التى بيننا وبينكم فأقل الماء يطهرها ٠

*

ان حياة جحا هى صورة للفيلسوف الساخر الذى يقف من تقلبات الزمن وأمور الدنيا موقف المتفرج ٠ فهو لا يحمل فى صدره ذلك الهم الثقيل الذى يقض المضاجع ولا ينظر الى الامور من خلال نظارات سوداء ، ولا يتعدى تفكيره لحظته وساعته ويومه ٠ فهو يدع الغد للقدر ، ولا يتوقع الخير كثيرا ولكنه لا يخاف الغد ولا يتوجس منه٠ وهو يواجه الازمات والمشاكل بروح رياضية مستهينة فكل عقدة لها حلال وكل مشكلة لها علاج ، وكل قضاء له نهاية ، وكل ضيق وراءه فرجا ، وكل أمر من الامور يمكن ان يرضى به الانسان ويواجهه٠ فالحياة عنده يسيرة مهما تكن متاعبها وتكاليفها ٠ فهو ما ان يضيق بزوجته حتى يرحل فى بلاد الله يبدل اوطانا واحبابا ٠ وما يلبث حين يحس بان الازمات قد انتهت أن يعود ليستأنف حياة جديدة٠ ولكم يضع له خصومه المآزق ويوقعون به عند السلطان ولكنه بهذه النفسية الصافية ذات النظرة الساخرة الى الامور سرعان ما يتخلص من الكيد الذى دبر له ٠ ثم هو لا يكيد للناس الا بقدر ما يكيدون له ٠ ولكنه رحيم القلب ينظر اليهم فى محنتهم فاذا بلغت غايتها خلصهم وحذرهم من المكر به ٠

وهو فى مجموعه قريب الى الشخصية المصرية الفكهة الساخرة ٠ وفيه ذلك الطبع الشرقى القائم على التوكل والرضا بالواقع والايمان بالغيب ، ولكنه فيما اثر عنه من نوادر وفكاهات متضاربة كأنما هو اكثر من شخص٠

مختلط كأنما قد كان شخصية خيالية لم تعش فى الارض وانما خلقتها الاساطير • وجعلتها النفوس الضيقة الحرجة فى فترات الضيق والاضطهاد متنفسا للآلام المكبوتة والآمال الضائعة تضع على كاهله اعباء كل نقيصة فى المجتمع أو عوج فى تصريف الامور •

وهو فى نظر القصص المروى قاض وهو أيضا امام وهما قريبان ويمكن الجمع بينهما • ولعل الضمير الشعبى الذى صنع هذه الشخصية أراد ان يسخر فيه من رجال الدين • وهو الى ذلك تاجر ومزارع ولص وهو مزواج مطلاق • وهو صاحب رحلة ورفيق حماره أو حميره •

❊ ❊ ❊

مدرسة جديدة فى الادب

من القضايا الادبية التى ظلت فترة طويلة من حياتنا الادبية الماضية موضع جدل ، قضية السناد فى الادب ٠

يقول طه حسين « اذا نظرنا الى حافظ وشوقى والمنفلوطى من جهة والى العقاد والمازنى وهيكل من جهة أخرى فقد كان الادباء الثلاثة الاولون لايعيشون لادبهم وانما يعيشون بأدبهم ٠ أريد انهم كانوا يتخذون الادب وسيلة الى الحياة والى حياة لا تمتاز بالاستقلال ٠ كان كل واحد منهم فى حاجة الى حماية تكفل له ما يحب من العيش والمكانة ٠ ولا بد له من « مسين » كما يقول الاوربيون يحميه ويعطيه ويحوطه بالرعاية والعناية ويدفع عنه العاديات والخطوب ٠

أما الثلاثة الآخرون فثائرون على هذا النوع من الحياة . بيغضون لهذا النوع من الادب ، يكبرون انفسهم ان يحميهم هذا العظيم أو ذاك ٠ ويكبرون أدبهم ان يرعاه هذا القوى او ذاك ٠ هم يعيشون اولا ٠ يعيشون احرارا ٠ ثم ينتجون او لا ينتجون أحرارا وهم يأبون أن يؤدوا فى انتاجهم الادبى حسابا لهذا أو لذاك ٠ وهم مستقلون فى انتاجهم الادبى بادق معانى هذه الكلمة وارمها ٠٠ »

والواقع ان القياس مع الفارق فعلا ٠ ولكننا لا نستطيع ان ننسى ان كتابا بارزين كانوا فى حماية احزابهم وزعمائها ، وان قصة العقاد مع سعد زغلول معروفة ، وما كان يقوله العقاد للرافعى حين كان يخاصمه من انه انما يحارب كاتب الوفد الاول وما كان يدفع الصحف الى ان تمتنع عن نشر رد على كتابها من ناقد انما يدل كل هذا على أن بعض ادبائنا لم يكونوا قد تحرروا تماما من سلطان المسين الذى وصفه الدكتور طه حسين ٠

ومن القضايا البالغة الاهمية انه مع الاسف لا يوجد فى مصر من يستطيع ان يعيش من كتبه وحدها ٠ وانه لا بد لمن يريد ان يعيش على الكتابة ان يحترف الصحافة ٠

ولكل كاتب فى مصر مهنة ٠٠٠ والادباء الذين جاءوا بعد جيل الرواد ما يزالون يعملون على مكاتب الوظائف مما يجعل انتاجهم قليلا

وضعيفا اذ انهم ينفقون فى عملهم الادبى أوقات راحتهم فيكتبون على حساب اعصابهم .

والاديب كما يقول الدكتور محمد صبرى (الرسالة ١٩٤٤) لا يجد عونا من أهل صناعته ولا يجد عونا من الجمهور لان الطبقة المستنيرة لا تعد الا بالمئات فى حين انها فى البلاد الغربية تعد بمئات الآلاف .

بل ولا يجد عونا من اصحاب المكاتب والناشرين . فاكثر الاخيرين أميون وشبه أميين لا يهمهم فى نشر الكتب الا الربح والتجارة .

والحقيقة المؤلمة التى كتبها الدكتور صبرى منذ بضعة عشرة سنة لا تزال قائمة لم تتغير ولم تتبدل والا فماكان اغنى مؤلف هذا الكتاب عن الجهد الضخم الذى بذله فى سبيل اخراج هذا الكتاب .

واذا كان لنا ان نتحدث قليلا عن هذا الجيل الذى تبع جيل الرواد فاننا نلاحظ عليه انه لم يشتغل بالصحافة فسلم من لوثة السرعة العاصفة ولكنه الى ذلك شغلته الوظيفة عن التفرغ والكثير من هذا الجيل لم يسافر الى أوربا .

ولكن الاستاذ العقاد يصف هذا الجيل (ديسمبر ١٩٤٧) بأنه نشأ فى ابان النهضة الادبية الحديثة التى قامت على أسسها الطبيعية واسبابها المعقولة ومن مزايا هذه النهضة انها جمعت ذخيرتها من احتكاك الثقافات فكان لادبائها زاد من الادب الاوربى عامة والادب الانجليزى خاصة فاستفادوا صحة الاسلوب وجودة اللغة واستفادوا سعة الموضوعات ودقة الاداء وسلموا من اللوثة الاخيرة الهوجاء التى اعقبت جيلهم واندفعت فى طريق اقرب الى التفانين والتقاليع مع قلة الزاد فى اللغة وقلته فى الاطلاع .. »

والواقع ان « مدرسة عطارد » قد بدأت تعمل لتحرير الادب من هذه اللوثة التى أشار اليها العقاد وانها ستعود بالادب الى موائمة واضحة بين الادب العربى الخالص والثقافة الاوربية مع الاحتفاظ بمقومات الشخصية المصرية العربية الاسلامية ..

ونحن لا نشك ان سقوط الرسالة انما جاء بعد ان توقفت الرسالة نفسها على المضى فى تيار الحياة لتدفع فيه على اساس من هدف محدد واضح .

وان ازمة الادب ان كانت تتمثل فى عدم اتصاله بالحياة وعدم الصدق فى التعبير عن النفس وهو ما يسمى بالنزعة الواقعية فانها فى الجانب الآخر تتمثل فى اهمال اللغة والمعنى واهمال المصرية ومقومات شخصيتنا

العربية وامجادنا الاسلامية الواضحة الضخمة التى يجب أن تنصقل مع الزمن ٠

فليست الدعوة الى الادب الجديد هى نبذ التراث العربى القديم وليست هى نقل الادب الغربى أو انواع معينة منه كأدب الوجودية أو الاشتراكية أو غيرها من المذاهب ٠ وانما نحن فى حاجة الى ايمان بمصرنا فى الادب ولسنا فى حاجة لكى نصبغ وجودنا بلون من ألوان غيرنا ٠ لان لنا طابعنا الواضح القوى الذى يجب ان يظل واضحا وقويا ٠ ونحن نؤمن بقوة شخصيتنا ولذلك فنحن نفتح النوافذ أمام كل الالوان الادبية القديمة والجديدة الشرقية والغربية، لننهل منها ونسيغها واثقين من ان شخصيتنا الادبية المصرية ستمتص بها كل هذا وتذيبه فى كيانها فتزداد به قوة ووضوحا وحيوية واندفاعا مع تيارات الادب العالمى والاتجاه الى الادب الاكبر : الادب الانسانى

واذا كان الغرب قد فسد رأيه فى بعض هذه المذاهب التى ابدعها فتحول عنها أو بدأ يعدلها فلماذا نأتى نحن آخر الامر لنعتنق مذاهب تحرر منها أصحابها ٠

ان الادب المصرى قد واجه مختلف النزعات الادبية الغربية فى خلال هذه الثلاثين عاما ٠ واستقبلها ودرسها واخذ منها ، ثم تركها الى غيرها ٠٠ ولم يعتنق واحدا منها ولم يقبله ككل، ذلك لان كل هذه المذاهب لمعت لمعانا والارتقاء لدارون والسيكولوجية لفرويد والتجريبية لمكدوجل ، والسريالية والوجودية وغيرها وغيرها ٠٠

ظهرت كل هذه المذاهب ثم اختفى بعضها ٠٠ اما الذين يلحقون انفسهم بها فسيموتون معها واما الذين ينظرون اليها بشىء من التحفظ وينقلون منها ما يرضى شخصيتهم الادبية المصرية الواضحة فانهم يثبتون قواعدهم فى ارض صلبة ٠

واننا لفى أشد الحاجة الى خلق النفسية الانسانية الصادقة التأثر بالحياة المرتفعة فوق الدنيا ، المتكبرة المتحررة العازفة عن قبول اى لون من الاحتلال الفكرى أو النفسى ، هذه النفسية التى نريد ان ننشأها ونعمل لها لتكون المدرسة الوسطى بين هذه المدارس المضطربة المزعزعة التى لا تستقر والتى تلبس ثيابا ضيقة عليها أو فضفاضة ٠٠

ولقد تحرر الادب المصرى الآن واخذ بعد الثورة طابعه الجديد فليس هناك مداورة لسلطان جائر أو احتياط من شر ظالم طاغية أو الاستخفاء برأى خوفا من التنكيل أو اصطناع المجاز رغبة فى الاستخفاء فهذا الوضوح والنقاء الذى يواجه أدبنا المصرى الحديث يستتبعه وضوح آخر فى خلق الشخصية المصرية ودعمها .

لقد قامت كثير من المحاولات الادبية في الماضي ، هذه المحاولات التى لم تكن فى حقيقتها الا محاولات استعمارية تأخذ طابع الادب والفكر لتبقى وترسخ فى ضمير الامة ، ومن هذه الدعوات اللغة العامية والفرعونية وغيرها .

اما الآن فاننا نؤمن بماضينا المشترك : الفرعونى ، والعربى ، والاسلامى ولا نرى غضاضة من اذاعة أمجادنا المتصلة بكل طرف من هذه الاطراف .

أما اللغة فقد وصلنا فيها بعد كفاح الى حل وسط بين العامية المسرفة والعربية الغالية وهو هذا الاسلوب الذى نكتب به والذى غدا يسيرا سهلا

واذا كان بعض النقاد يخافون أن تصنع الصحافة بالكتابة ما صنعت السينما بالمسرح، لان سرعة الصحافة قد تفسد الاقلام افسادا لا تصلح بعده لاجادة التأليف فان دعوتنا هذه ستدفع اسلوب الصحافة ومنهاجها الى الارتفاع مرة أخرى بنفسية القارىء وتوجيهه بدلا من الاستجابة اليه

هذه هى ثورة الادب الجديدة التى نريد ان تربط الادب والفكر بالتطور والنهضة التى تندفع بقوة للاصلاح والبناء فى كل ميادين الاجتماع والسياسة والاقتصاد .

وغاية القول فى هذا الصدد ان الادب المصرى الحديث قد كون شخصيته فعلا وأصبح عليه ان يحررها من بعض القيود التى تحاول ان تكبتها .

وبعد فهذه دعوة مدرسة عطارد التى يحملها لفيف من كتاب الثورة منهم عبد العزيز الدسوقى وصلاح الدين الشريف ومحمد محمود حمدان وسعد حامد وأنور الجندى .

لقطات سريعة

هذه خواطر سائبة مرت في النفس بدافع من الاحداث العارضة جريت فيها مجرى الشاعر الفرنسي القديم الذي كتب على باب بيته عبارة « لا يوم بغير سطر »

كم يبعث اسم الاندلس في النفس من أحاسيس ومشاعر ورؤى متضاربة مختلفة فيها الحب والشوق والحزن العميق . فيها ذلك المجد الضخم الذي بسط سلطانه على هذه المنطقة . والحضارة الرائعة . وصور الترف والجمال التي ما تزال تكمن في اعماق نفوسنا من وراء صور التاريخ . صور قرطبه والحمراء والزهراء واشبيلية . وصور طارق بن زياد وعبد الرحمن الداخل وعبد الرحمن الناصر والحاجب المنصور ومعالم الفروسية والنصر والجهاد في سبيل الطفر والعزة . وهذه الجامعات التي كانت منائر العلم تبعث الضياء في قلب اوربا التي كانت تغط في ظلمات القرون الوسطى .

ومن وراء ذلك قصص للنصر وقصص للهزيمة . وشريط طويل للفرقة والتمزق والصراع بين خليفة وخليفة ، وفي كل بلدة أمير للمؤمنين ومنبر . والعدو من وراء الاحداث يغذي الصراع ويدفع الى تمزيق الشمل . تلك الشرذمة من الفرنجة التي أهملها العرب ابان الفتح في منطقة الجبال . والتي ظلت تنمو وصبرت على الاحداث حتى استطاعت ان تكون بؤرة العدو . ووكر الخيانة ومنها هبت جولات الهزيمة وفيها رسمت خطط الصراع .

وكان المسلمون قد انتقلوا من الجهاد الى الترف . ومن الكفاح الى المتاع . ومن الخشونة الى النعمة . وهذه علامات الغروب . واسباب الهزيمة . وبينما كانوا يذهبون وراء اللذات كل مذهب كان العدو يستعد ليسدد الضرب وليحطم السلطان ويسترد الارض ويأخذ الثأر .

وذهبت روعة البطولة التي رسمها طارق حين جاء الى الاندلس

لاول مرة فحرق مراكبه وقطع بينه وبين عدوه الغرب ليقول لجنوده افتحوا أو موتوا فليس سبيل الى العودة. وذهبت روعة العدالة والسماحة التى شاهدتها الاندلس فى حكم المسلمين حتى تحولت الدنيا هناك الى ضياء ونور . وذهبت روعة الكفاح الذى كافحه عبد الرحمن الداخل وعبد الرحمن الناصر . وانطوت هذه الصفحة الرائعة من المجد والجهاد والثقافة الى غير رجعة عندما تمزقت الجبهة وذهبت الوحدة وذهب الملوك فى الخصومة واللذة والفرقة . ومضوا فى اسباب الترف والزخرف والبناء وتحول القرميد الى فضة والنحاس الى ذهب ، وتحولت القصور الى صالونات ، وعدة المحارب الى أداة اللهو والغناء .

هنالك غلب العدو واكتسح ، واندفع يزحف شبرا بعد شبر ومدينة بعد مدينة ومملكة بعد مملكة حتى سيطر وتمكن . واذاق المسلمين شر ما عرف فى تاريخ القوم من اذلال وتعذيب ونفى وتشريد وتقتيل .

وحمل المسلمون مفاتيح دورهم فوق صدورهم ومضوا يعبرون العدوة منكسى الرءوس مطرودين اذلاء . وفى مقدمتهم ابى عبدالله آخر خلفائهم .

وحقت عليهم كلمة الهزيمة والتشريد والتنكيل .

انها لصورة مؤلمة يفيض القلب لها بالحزن حينما يتصور أصحاب المجد الغابر الذين نشروا العدل فى أوربا . ونقلوا العلم . ورفعوا منار الثقافة ، وحفظوا الحضارة وهم يتحطمون ويسحقون ويهاجرون اذلاء لا يجدون من يشفع لهم أو يرحمهم .

انها « الاندلس » فيها صورة المجد ممتزجة بصورة الذلة . فيها الحب والبغض . فيها الفتح والهزيمة والصباح والليل .

وان كان العرب قد هاجروا وان كان مجدهم قد انطوى فى هذه البلاد الزهراء فانهم قد تركوا أرواحهم وصورهم ووجوههم هناك ما تزال حية فى حياة الناس . فما او تلتقى بأحد من الاندلس حتى يخفق قلبك عند ما تحس انك قريب أشد القرابة من هذه الوجوه والصور .

ان القلب يخفق للاندلس . يخفق لهذا التاريخ الطويل . وهذا المجد الذاهب . يخفق لحياة طويلة انطوت ولكنها لاتزال حية فى آفاق الامجاد والبطولات ..

تاج محل

كلما رأيت صورة تاج محل .

أو قرأت عنها . او ذكرت الهند وهى تقدم زوارها الى هذا الاثر التاريخى الضخم عجبت لهذه العاطفة العميقه التى ملأت قلب هذا الرجل الذى عاش عشرون عاما يقيم هذا البناء وينفق عليه ويضع فيه عاطفته وحبه ويخلق من المرمر الابيض حياة ويضفى على البناء قوة . وعلى القبر روحا

هل هذه المرأة التى أحبها شان جيهان قد ماتت وهى فى أوج العاطفة فكان الحرمان الذى لا أمل وراءه هو مصدر هذا الاتجاه الذى دفعه الى ان يقضى حياته يبنى لها هذا القبر . أم ان العاطفة قد تحولت فى نفس الرجل الى هذه الصورة المادية الرائعة التى بلغ من روعتها ان اطلق عليها اسم « الحلم الرخامى أو الموسيقى المتجمدة » ..

هل نقل شان جيهان عاطفة الحب من قلبه الى عاطفة الفن . أم حول هذا الشوق الذى كان يملأ روحه الى صورة فيها معنى تحقيق الرغبة . أم جعل هذا الاثر الفنى الخالد بدلا من الجسم الذى ولى من بين يديه حيث واراه التراب .

هل رسم له المرمر فى قوائمه اللدنة فى صورة القبر والمآذن والقبة ، صورة فنية تطفىء لوعة الحب المحروم الذى ذهب الى غير عودة . أم انه أراد ان يعيش فى امتداد لهذا الحب ، يزيده قوة فى قلبه وحياة حين يجد نفسه فى معنى الحب بعد الموت كلما مضى البناء يعلو ويكتمل . أم انه اراد ان يرضى حبيبته ميتا فاخذ ينفق على البناء كل ما يملك من ثروة ليجعله آية فنية أم انه أراد ان يذهب فى معارضة القدر الذى حرمه من فتاته بان أقام لها اثرا خالدا يظل مدى الدهر قائما لا ينال منه الموت الذى ينال من بنى البشر .

والحق ان عاطفة الحب التى ربما كانت تنطوى من نفس شان جيهان لو عاش مع حبيبته قد تحولت الى فن رفيع خالد . هذا الفن الرفيع الذى يمكن تصور مدى روعته اذا عرفنا ان الزهرة الواحدة تؤلف من مائة حجر كريم تصب فى داخل المرمر مما يذهل الرائى والسامع .

ان « ممتاز محل » قد غدت قصة الدنيا كلها حين طلبت من زوجها على فراش الموت ان يبنى لها قبرا عظيما وان لا يتزوج بعدها وقد بر شان جيهان بوعده لها ..

وحين نذكر قصة « ممتاز محل » تخطر على البال قصة « الزهراء » التى كان يحبها الملك الناصر وعاش اكثر من عشرين عاما يبنى لها هذا القصر من القرميد الذهب والفضة .

وقد انفق على البناء الوفا مؤلفة. غير ان الفارق بين قصتى الحب ان الزهراء كانت حية وان الناصر كان يرضى عاطفتها بان يحقق لها أروع صورة لقصر تعيش فيه بينما كان شان جيهان يرضى رغبة الحبيبة التى ذهبت بان يقيم لها اروع صورة لقبر تدفن فيه ..

ولكنه هو الحب . دفع هذه القلوب الى ان تذل له وتخضع . وتعيش له . وتبذل من مالها ودمها وعاطفتها فى سبيل المحبوب دون ان يكون للملك او الغنى أثر فى تخفيف لوعة القلب الانسانى التى يتساوى فيها الناس جميعا

الكرنك

عند ما وقفت فى معبد آمون فى قلب الكرنك بلغت بى السعادة غايتها فقد كان ذلك أملا غاليا عزيزا طالما تمنيته . منذ أكثر من عشرين عاما عند ما قرأت كتاب أوقات الفراغ للدكتور هيكل ١٩٣٢ وعشت بعد ذلك اقرأ للكتاب والادباء الذين يذهبون الى هناك يستوحون اثار الفراعنة

ولطالما تطلعت كلما جاء الشتاء الى ذلك الامل . أمل قضاء أيام فى الاقصر أشاهد هذه الآثار . واكمل بها جولة فى تل العمارنة منذ كنت طالبا صغيرا . وزيارة الاهرام .. فيما بعد ذلك بسنوات .

فلما كنا فى القطار وقد اقترب موعد وصولنا الى الاقصر رأيتنى أقف فى شرفة القطار لاتطلع الى أول علامة من علامات مملكة طيبة فكانت الكرنك ..

كان ذلك فى ابريل وقد مضينا الى هناك حيث استمعنا من مدير الآثار هناك الى حديث طويل . ومشينا فى ظل الاحجار المنحوتة فى فن ودقة . وعدت بالذاكرة الى زيارتى لتل العمارنة حينما أوغلنا نشاهد الرسوم الرائعة والكهوف المنحوتة فى قلب الصخر

وهناك تحت الاهرام كنا نقف لنرى هذا العمل الضخم الذى يتصور العقل كيف تم . وتمثال رمسيس فى ضخامته وعظمته . والمسلات . كل هذه المظاهر الرائعة لحضارة الفراعنة تعطينا صورة لتلك المدينة القديمة التى مضى عليها اكثر من خمسة آلاف عام وهى ما تزال قوية كأنما نزل من عليها البناء كما يقول بعض ابناء البلد أو كأنما نفض الصانع منه اليدين بالامس نفضا

ولعل هذه الصورة البارعة هى التى دفعت بعض كتابنا بالامس ان يجروا مع هوى بعض الغربيين

فى الدعوة لمصر الفرعونية • فان الحضارة الفرعونية جانب لا ينسى فى تاريخ مصر • وله فى نفس كل مثقف أثـر • وفى عاطفتـه اعجاب • انه يزدهينا • ويجعلنا نفخر باننا نحن المصريين كان لنا فى مرحلة من حياتنا مجد ضخم يركب الناس لاجله متون البواخر ويشقون المحيـط ليصـلوا اليه وليقفوا تحت ظلاله فى الهـرم والاقصر •• ونحن نرى فى عظمة الفراعنة جانب لا يقل روعة عن جانب امجادنا الاسلامية والعربية فهى كلها حلقات تتكامل الى جوار بعضها البعض لتمثل ماضى وطن عزيز •

ان حضارة مصر القديمة حضارة اصيلة • ويكفى ان يكون قـد كتب عن الاهرام أكثر من ألف كتـاب بأكثر من خمس لغات عالمية • صور فيها كتابنا الفلسفة الروحية التى قام هـذا العمل الضخم على أساسها • بينا لا نجد نحن فى مصر كتابا واحدا يصور هذه الفلسفة •

ولقد أفضيت بهذا الخاطر مرة الى الاستاذ مصطفى عامر مدير مصلحة الآثار فأكد لى انه يعد ابحاثا جديدة فى نواحى عظمة هذا التاريخ القديم • ولقد كان ذلك منذ أكثر من عامين ومع ذلك فلم نجد بعد شيئا فى الافق يدل على ان هـذا الرجـاء فى طريق التحقيق ••

* * *

نزعات الانطلاق والتقيد بعد الحرب

لم يشهد العالم حربا عالمية فى العصر الحديث قبل الحرب الكبرى ١٩١٤–١٩١٨ اذ كانت الحرب قبل ذلك مقصورة على قطر واحد أو قطرين متجاورين فلم يكن يحس بأثارها الاقتصادية أو الاجتماعية الا أهل المنطقة التى تستعر فيها ٠

ولكن تطور المدنية وتقدم العلم وتعدد الاكتشافات والاختراعات الغت المسافات بين الاقطار والقارات وجعلها تتأثر جميعها تأثرا مباشرا من اشتعال نار الحرب فى أى منطقة من مناطق العالم ٠

وقد كانت حرب ١٩١٤ أول هذه الحروب التى عرفت لها صفة العالمية والتى كان لها أثر ضخم فى محيط الاقتصاد والاجتماع والسياسة فى العالم اجمع ٠ بالرغم من أن هذه الحرب وقعت فى أرض أوربا نفسها فان آسيا وافريقيا وامريكا تأثرت بها الى حد بعيد ٠

وكانت هذه هى المرة الاولى فى تاريخ المجتمع الانسانى والبشرى التى تربط الحرب بين عدة قارات فتتأثر تأثرا فعليا وواقعيا بالمعركة حربية فى جهة منها

وقد امتدت الحرب الاولى خمس سنوات استنزفت خلالها الجيوش كل الموارد التموينية العالمية ، وتطلب اعدادها وتزويدها بالاسلحة والمعدات تكتيل كل القوى المادية فى سبيل تحقيق هذه الغاية ٠

وفقد العالم خلال هذه الحرب الطاحنة زهرة شبابه وخيرة ابنائه كما دمرت الحرب كبريات المدن بما فيها من مبان واثار ومنشئات ولم يقف الامر عند المحاربين فقط بل أن سكان المدن فى معظم انحاء العالم استقبلوا صنوفا من الترويع والاذى من جراء غارات الاعداء وقذائفهم التى أدت الى موت الكثير من الانفس وتدمير العديد من المبانى ٠

وقد أدى تقدم العلوم الى أن تتجاوز الحروب ساحة القتال ولا تكون وقفا على الجنود المشتركين فيها وحدهم ٠

الحرب العالمية الثانية

وكانت الحرب العالمية الثانية (٣٩ـ١٩٤٥) أعتى من الحرب الاولى واعنف وابعد أثرا فقد تقدمت المخترعات ووسائل النقل والصناعات الميكانيكية والكيماوية والاثيرية تقدما كبيرا ، اعان على ان تكون هذه الحرب أشد عنفا وفتكا وقد ظلت متقدة الاوار ست سنوات حصدت خلالها عددا ضخما من الشباب المحارب والسكان الآمنين •

ولم يقتصر ميدانها على ساحة أوربا بل امتدت الى آسيا وافريقيا

وقد حق لدارسى نظم المجتمعات ونفسيات الشعوب ان يلاحقوا هذه الظاهرة الجديدة بالبحث وان يقفوا منها موقف المتأمل الفاحص وان يعرفوا الى أى حد بلغ أثر هذه الحروب فى النفسية الانسانية •

ويبدو أن الحرب بهذه الصورة الجديدة تكون أشبه بالعاصفة المدمرة الطاغية التى تقلب الاوضاع رأسا على عقب والتى تدفع النفوس الى ألوان عجيبة من التمرد والاسراف والانطلاق الذى يبلغ أحيانا ابعد حدود التصور والتقدير •

وليس بالعجيب ان تكون هذه اثار الحرب فان الشباب الذى يرى مدينة من المدن الضخمة الحافلة بفنون المتاع والوان النشاط الفنى والعلمى والاجتماعى قد اندكت مرة واحدة فتفرق سكانها وتحطم بنيانها وغاصت فى الارض واندثرت قصورها الحافلة بأنواع المتع وطرائف الفن وقتل اهلها وساكنوها • وانطوت صفحة جمالها • وذهبت الى الابد آثارها الفنية والعلمية لجدير بأن يتحول اتجاه تفكيره تحولا جديدا •

ولا بد ان ترى لهذا الحادث فى النفوس رد فعل حاسم •

اذ ولا بد ان تتسرب الى العقول عوامل من الشك والاضطراب والجرأة لا حد لها

ولا بد ان تضطرب الاعصاب فتفقد اعتدالها وهدوئها وتوازنها ومن ثم تتفشى فيها مذاهب جديدة ويتغلب عليها الفردية والبلبلة والتخبط •

ولكن الى أى مدى يذهب هذا الاتجاه الجديد : الى الانطلاق أم الى التقيد ؟

نزعة الانطلاق

يرى بعض الباحثين انه يؤدى الى الانطلاق ويستشهدون لذلك بما عرف بعد الحرب الاولى والحرب الثانية من تفشى الطيش والتهور وظهور معالم الآراء الجريئة والمذاهب المتمردة والنزعات المكشوفة فى عالم الفكر وفى المجتمع نفسه

نتيجة لما يراه الشباب من ان الحروب قد افقدت القوى واهلكت الناس وهدمت المدائن العامرة فلا فائدة من الجد والعمل ولا ضرورة للعقل والدين ولا نتيجة للخير والاعتدال ٠

ومن ثم رأينا الشباب يكفر بهذا كله ويطلق العنان لشهواته العارمة الجارفة ويأخذ من حظوظ الدنيا كل ما اتسع له وقته وماله وبذلك تحطمت القيم الاخلاقية والروحية الاجماعية بعد الحربين الاولى والثانية ٠

وانتشرت نزعة الاستهتار والخلاعة والمجون ، فبدت على اتجاهات الشباب ميوعة وفى افكارهم جرأة وفى أحاديثهم اضطراب كما ظهرت فى ميدان الزينة والازياء الوان من المغالاة

وأعان على ذلك ان الآلة قد اوسعت الفراغ للشباب فتهالك على متاع الحياة واكسب النفوس صورة الملايين من الزهرات التى ظل يحصدها الموت خمس سنوات كاملة ، روح الجرأة على المقدسات والاستهتار بالخلق وقد بدت الجرأة فى الادب والفكر بعد الحرب الاولى بشكل واضح ٠

وظهرت المدرسة السريالية القائمة على الحيرة والقلق والرغبة فى الانتقام من الحياة والعكوف على اللذائذ والانصراف الى المتع والتهالك على الشهوات ٠

ولم تلبث هذه المدرسة ان كسبت عددا كبيرا من الانصار والمعجبين ٠

واستتبع ذلك اسراف عجيب فى الزينة والرأى واضطراب فى نظام البيت وضعفت نسبة الزواج فتفككت الاسرة وارتفعت نسبة الطلاق وعمت المجتمع روح القاء التكاليف والاستهانة بالواجبات وتأثر المسرح بهذه الروح الهائجة المنزعجة فظهرت القصص التى تضطرم بالتمرد والانطلاق ولتراخى

وتأثرت الموسيقى بهذا الاتجاه العاصف فظهرت الالوان الحادة٠ وتزعمت ايثار الاستمتاع بالحياة استمتاعا مجردا من الالم وتتجه الى التشكيك فى الافكار ومهاجمة الدين والخلق والوطنية وتغليب الانسانية العالية وأخذ الادباء يصورون الغرائز والعواطف فى اللذة الجنسية والجمال على المعانى حرية وكشف ٠

وبعد الحرب العالمية الثانية ٠ ظهرت « المدرسة الوجودية »التى تعتمد على التمويه والتى تطلق العنان للشباب وتهدف الى الانحلال الاخلاقى فى طبقات الشبب والشابات ويعد سارتر عميد هذه المدرسة من ابرع الكتاب ومن

[illegible] ٠

ولا شك ان الوجـودية هى فلسفة الاعصاب المنهارة ٠ من نتيجة لروح الحرب التى أورثت اليأس والشعور باحتقار الحيـاة والاندفاع الى اللذات ٠

وقد انتشرت روح الفلســفة الوجودية فى الشعر والموسيقى والادب والفلسفة والفنون وهى فى جملتها تنظر الى التاريخ فى سخرية والى المستقبل عـلى انه خرافة وترى ان الحاضر هو كل شىء ٠

واهداف الوجودية اليأس وعدم الاكتراث والشك فى المستقبل والهرب من الواقع هذا جمال لما يراه بعض الاجتـماعيون مؤيدا لوجهة نظرهم فى ان الحروب تدفع الى الانطلاق ٠

نزعة التقيد والرجعة

ولكن فريقا اخر من الباحثين يرى ان الحروب تدفع الى التقيد والرجعة ٠ ويعلل ذلك بأن النفس الانسانية حينما يعتورها القلق فى ابان الزلازل العنيفة تحاول ان تعالج قلقها بخلق جو قوامه طمأنينـة الروح وثقـة العقيدة فتندفع الى هذا الاتجاه ويؤيدون رأيهم ذلك بأن الصيحات تتعالى دائما بعد الحروب بان المادية هى التى كوت العالم بنار الحروب وان فقدان الجـانب الروحى والنقص الدينى هو مصدر الصراع العسكرى واليأس العنيف الذى يؤدى دائما الى الحرب وقد اعتمدت كنيسة وستمنستر بعد الحرب الاخـيرة مبلغ مليونى جنيه للدعـوة الى الدين وحمل الناس عليه ٠

وكتب الـكثير من الـكتـاب العالميين يرجع سبب الشقاء الانسانى الى فقدان عنصر الروحية

ومن معالم التقيد والرجعـة ظهور الديكتاتوريات فى أوربا بعد الحرب العالمية الاولى ٠

فقد ظهرت النازية والفاشية وكلها تدعو الى تقييد نظم الحكم وكبت الحـريات ووضـع القيود القاسية التى كانت جميعها تهدف الى استشعار روح الدين والخلق ومحاولة خلق نهج مثالى خالص ٠

وقد اشارت هذه الديكتاتوريات من بسمارك ونيتشه فكرهت ما فى الاديان من ضعف ولين وعاملت المرأة فى جد ولم تترى لها سبيل المجاملة ٠

وقد رأى الباحثون ان هذا كان اتجاها طبيعيا نتيجة للحروب ٠ وهـو ليس يرمى الى التخـاذل والضعف بقدر ما يرمى الى القوة والحماسة والرجولة

كما ظهر مذهب السوبرمان وهو الانسان الاعلى وهو ينطوى على الاتجاه نحو استخلاص الاجناس

والنسل من معالم الضعف والخور والمرض حتى تكون صالحة لظهور جيل جديد قوى .

أما بعد

بعد ان استعرضنا كلا المذهبين يمكن القول بأن الحرب لها نتائجها الطبيعية فى زلزلة العقائد والمقدسات والمقومات الخلقية .. نتيجة للآثار العنيفة التى تحدثها فى نفوس الشباب .

وان كل الآثار التى صورها القائلون بالانطلاق صحيحة الى حد ما أما ما قيل عن الرجعة والتقييد فان ذلك يجىء عادة بعد وقوف رحى الحرب بمدة تقدر غالبا بعشر سنوات وبعد استفحال روح الجرأة والانطلاق وتعالى صيحات المصلحين والفلاسفة !

وقد رجعت أوربا الى التقييد فى نظم المجتمع والادب والسياسة بعد الحرب الاولى سنة ١٩٣٠ تقريبا .

ونحن الآن لا نزال فى فترة الانطلاق المضطربة المزعزعة الواقعة بعد الحرب العالمية الثانية . ولذلك فان فلسفة الوجودية قد استفحل شأنها فى أوربا عامة وفى فرنسا على الخصوص .

وظواهر الامور كلها تدل على أننا نجرى على نفس السنن الطبيعية السابقة أما صيحات المصلحين عن السلام والرجعة الى الدين والخلق فانها تظهر عادة بعد استفحال ظاهرة الانطلاق ولكنها لا تأتى نتيجتها المرجوة الا بعد فترة طويلة .

وكثيرا ما يكون للقدر سخريانه المريرة فقد تقع الحرب العالمية

الصحافة والثـــورة

خير ما توصف به الصحافة فى العهد الماضى كلمة جاءت على لسان الاستاذ فكرى أباظة قالها عام ١٩٤٦ مازلت أذكرها حتى الآن ٠٠

« ان الصحافة تعمل موظفة عند الاحزاب »

وهذا جزء من الحق لا شك فيه فقد كانت الصحافة تعمل موظفة فعلا ولكن ليس عند الاحزاب فقط ، بل وعند الاستعمار والقصر أيضا، وكان نصيب الشعب فى اعمدتها قليل جدا ٠

ولعل بعض الاسماء اللامعة التى كانت موضع التقدير والاعجاب فى ذلك العهد انما صنعتها الصحافة واضفت عليها هذه الهالة المشرقة من النور فى حين كانت شخصيات هؤلاء « الزعماء » تافهة لا تستحق ابدا ما نسب اليها من أمجاد وهمية ٠ ولقد عاش زعماء ذلك العهد على خداع الشعب وتغريره بالخطب النارية والكلمات البراقة وكانوا هم فى صميم حياتهم اذلاء للمستعمر خاضعين لارادته ، لا حول لهم ولا قوة ، كانوا أشبه بقطع الشطرنج يحركها كيف يشاء ولم تكن هذه الخطب التى كانت تلهب المشاعر الا من نوع ما يطلقون عليه « للاستهلاك المحلى »

أما الصحافة فكانت تصنع من تصرفات هؤلاء الزعماء بطولات . كانت تضفى على حركاتهم الى لندن أو الى الاقاليم أمجاد ٠ وكان الكتاب الكبار غفر الله لهم يصنعون فى ذلك الوقت تاريخا وهميا كله الكذب والتضليل والنفاق ٠٠ وكانوا يتصارعون ويتشاتمون بأسلوب غاية فى الهجاء ، بل ان اساطين الهجاء فى الادب العربى ليعجزوا عن أن يقفوا فى صف هؤلاء الكتاب ٠

كنا فى هذه الفترة من اعوام ١٩٢٥ وما بعدها طلابا نعيش فى اقليم « ديروط » ويصل لدينا قطار الصحف فى الساعة الثانية ظهرا ٠٠ وبعد بضع دقائق من وصولها كنت أمر على بعض « الدكاكين » فأجد عجبا ٠٠ هذا محل بائع الفاكهة السياسى الكبير الحاج فلان جالس وأمامه شاب يقرأ له مقال عباس العقاد فى كوكب

الشرق بحماس بالغ . وهذا محل لمبيع السجاير يملكه المعلم علان يقرأ له شاب آخر مقال توفيق دياب . والثالث يقرأ له مقال هيكل .. والرابع والخامس وكل هذه المقالات شتائم موزعة بالقسطاس المستقيم على زعماء السياسة المصرية فى ذلك الحين .

ولم يكن هناك ما يمنع قط من ان ينتقل الكاتب الكبير من صف الى صف فبينما تجد الاستاذ العقاد كاتبا من كتاب الوفد الكبار تجده فجأة قد أصبح يحمل على الوفد ..

وكذلك توفيق دياب الذى بدأ حياته فى الاحرار الدستوريين ثم انتقل الى الوفد وهكذا . وفى خلال ذلك كانت الصحافة عبارة عن دلك القىء من الشتائم التى كانت تصب من الصحف على بعضها الآخر ومن الاحزاب على الاحزاب الاخرى وكانت الصحف كلها تجمع فى نفس الوقت على شتم «الحزب الوطنى» والسخريه من دعوته الى الجلاء ووحدة وادى النيل

وأكبر ما يمكن ان نسوق من دليل على هوان زعماء تلك العهود على أنفسهم مع خداعهم للشعب ان المرحوم حسين شفيق المصرى كان يسلق بقلمه الساخر العنيف خصوم الوفد فى صحيفتى السيف والناس وفى الوقت ذاته ماكان يسلم الوفديون من قاذع شتائمه فى الكشكول .. ومن عجب انه كان يحظى بالتقدير والعطاء من هؤلاء وهؤلاء مع علمهم بحقيقة أمره وما يصبه على رؤسهم جميعا من شتائم !

ولعل كتابنا الكبار اليوم الذين تلمع اسمائهم فى ميدان الفكر والادب كقادة وزعماء لم يكونوا يطمعون فى ذلك الوقت أن يكونوا الا حملة القماقم لحفنة من الزعماء ولكنهم استطاعوا بشىء من اللباقة ان يكتبوا فى كل اسبوع مقالا « أدبيا » وكان هذا هو الثمن الحقيقى للكلمة التى تطلق عليهم اليوم « قادة الفكر ! »

ولو ان هؤلاء الادباء واجهوا الحياة الفكرية مواجهة مجردة لما أمكن أن يصلوا الى مثل هذه الشهرة الضخمة التى كسبوها أولا من الدجل السياسى والجدل والهجاء ..

ولعل اجمع دعوة يمكن أن توجه اليوم الى هؤلاء الكتاب هو أن يعتزلوا فان تاريخهم الماضى كفيل بان يجعل كتاباتهم غير ذات موضوع .

ولقد صدق الدكتور هيكل حين قال لى فى صالون السيدة جاذبية صدقى « اننا بائدون

في الادب أيضا ٠٠ كما نحن بائدون في السياسة » ٠

والحق اننا نشهد فعلا هذه الايام صدق ما يقول الدكتور هيكل ، فان الآبار التي مازال يغترف منها هؤلاء الكتاب منذ عام ١٩١٥ حتى الآن قد نضبت فعلا وان موجة الجزر قد جرفت فعلا هذه الاقلام فلم يعد انتاجها اليوم في قوة انتاجها وللزمن حكمه وللسن ولا شك قراره المحتوم واثره الواضح في النفوس والاذواق والاقلام أيضا ٠٠

* * * *

ولم تكتف الصحافة بان تكون موظفه عند الاحزاب وحدها ولكنها عملت في العهد الماضي موظفة عند الاقطاعيين وتجار القطن الكبار وعند اليهود والانجليز والفرنسيين والامريكان ٠٠٠ وعند القصر ورجاله ٠

ولعل كثير منا ما زال يذكر كيف أن المقطم كان جريدة الانجليز الاولى في مصر ٠ وانه وزع يوم اعلان الاحتلال في أول الحرب العالمية الاولى عام ١٩١٧ نسخا من ملحق صغير في حجم الكف اشترى منه « الدكاترة » أصحاب المقطم ــ كما كان يطلق عليهم ــ « ضيعة » كاملة ٠٠ وان العدد الذي صدر من المقطم في ذلك اليوم كان يحمل الاحتلال الانجليزي على انه « بشرى للمصريين » ٠

واذا كنا في هذا الفصل نسجل تاريخ الصحافة فاننا يجب أن نذكر هنا ان عملاق الصحافة المصرية « أمين الرافعي » وأد جريدته وعطلها قبل اعلان البلاغ الرسمي للاحتلال بيوم واحد حتى لا يكون مضطرا أن ينشر هذا الخبر في جريدته تحت سلطان الرقابة الانجليزية المفروضة ٠

وفي الوقت الذي كانت فيه « المقطم » جريدة الانجليز صراحة تصدر في قلب القاهرة وتحارب أماني المصريين وآمالهم وحرياتهم كانت هناك صحيفة أخرى يقال دائما انها تصدر لحساب الفرنسيين وتدعو لمصالحهم في الشرق ومصر ٠

وان هذه الجريدة الاخرى وصفت عرابي ايام هزيمته ومحاكمته ونفيه بأنه « الخائن » وظلت وقتا طويلا تصمه بذلك

ولعل هذه ليست الخدعة الواحدة التي حملتها الصحافة لتاريخنا الوطني الطويل ٠٠ بل ان هناك كثيرا من الامور التي صورت على غير وجهها ٠ أو التي رسمت بصورة مزيفة مضادة للحقيقة ٠٠ حتى انه ليمكن القول في يقين بان

مجموعات الصحف المصرية في خلال الفترة التي انتهت في ٢٣ يوليو ١٩٥٢ لا يمكن ان تعطى صورة صحيحة لتاريخ مصر ٠

ولقد عشنا فعلا في آتون الحوادث ورأينا كيف تزيف الصحافة التاريخ وكيف كانت تصف بالبطولة خنق محمد محمود وصدقي للحريات ، وتزييف صدقي واحمد ماهر للانتخابات ، وكيف كانت تسجل عبارات النحاس أمثال « خسرنا المعاهدة وكسبنا صداقة الانجليز » وغيرها من المواقف الخاصة بالدستور ولجنة الاشقياء وتلك المؤامرة الكبرى التي صورت بها معاهدة ١٩٣٦ بانها معاهدة الشرف والاستقلال ٠

ورأينا فعلا كيف كان القصر يصدر صحافة في السنوات الاخيرة بعد حادث ٤ فبراير ، وكيف جند احمد حسنين عددا كبيرا من الصحفيين اللامعين ليكونوا صحافيو الملك والقصر

وكيف كانت تحرر المقالات عن « العامل الاول » و« الوطني الاول » ومقالات أخرى عنوانها « هل تذكر يا مولاى »٠٠

وعند ما تدخلت هذه الجهات لتمنع الصحف من الاشادة بعمر مكرم وعرابي وعبد الله نديم وجمال الدين الافغاني لان هؤلاء كانوا جميعا خصوما للسراى وخونة !

وكيف استسلمت الصحف لهذا ورضيت به ٠

* * * *

ولا يزال هناك حادثان كبيران وقعا في العهد الماضي لم تستطع الصحافة التي هي مرآة الشعب وسجل التاريخ ان تعطينا صورة حقيقية لهما هما حادث ٤ فبراير وحريق القاهرة ٠ ذلك ان الحزبية نفسها لونت هاتان الصورتان وفرضت عليهما اضواء مختلفة جعلت القارىء في بلبلة فعلية

ولطالما ساندت الصحافة الاحتلال ورضيت به وساندت المستعمر واضفت على تصرفاته حكمة وسدادا ونصرت الحكام الطغاة على الشعب الاعزل ٠٠

ومن الناحيه الاخرى كانت الصحافة المصرية في العهد الماضي نصيرة للاقطاع وفي أكثر من موقف كقضية بهوت وغيرها لم تستطع ان تقول الحقيقة ولطالما ضرب الفلاحون وعذبوا في « دوار » البدراوى وسراج الدين وغيرهما من الاقطاعيين

ولعل الصحافة لم تكن في صف الطغاة كما كانت في السنوات الاخيرة قبل الثورة سنوات ١٩٤٢ وما بعدها حين

جندت كفاءاتها لخدمة القصر ولتأليه شخص الملك السابق فاروق ..

ولعله مما يذكر في هذا المقام ان صحيفة من الصحف المسائية نشرت بعد استقالة وزارة السعديين والاحرار الدستوريين التي استمرت خمس سنوات (١٩٤٥-١٩٤٩) عشر مقالات نارية في الجرائم والهزائم التي حققتها هذه الوزارة. وقيل يومها ان الوفد وهو الذي كان قد تولى الحكم اذ ذاك (١٩٥٠) اعطى صاحب الجريدة عشرة آلاف جنيه في هذه المقالات .

ولقد علمت - مع الاسف - أن المحرر الذي كتب هذه المقالات العشرة حصل على مكافئة عشرة جنيهات من صاحب الصحيفة .. وهذه هي قيمة الكاتب صاحب القلم في الصحف قبل الثورة . كان قلمه اداة من الادوات الرخيصة في سبيل الصراع الحزبي والسياسي .

ولعله مما يذكر هنا ان أضخم حملة سياسية هي التي قادها عباس العقاد على مكرم عبيد وكان مكرم عبيد هو المحامي الذي ترافع عن العقاد في أبان محاكمته ثم عاد العقاد بعد ذلك فصفى موقفه مع مكرم عبيد وكتب في جريدته الكتلة وكتب مقدمة لمجموعة خطبه « المكرميات » وصف اسلوب مكرم بالمدرسة القنائية

وكذلك فعل جميع هؤلاء الكتاب أو معظمهم في خلافهم مع الاحزاب وعودتهم اليها بعد ان يكونوا قد جرعوها الغصص والشتائم المقذعة !

* * * *

وبعد فقد كان طبيعيا وأمور الفكر والثقافة تأخذ اليوم سبيلا جديدا ان تنال الصحافة جانبا من هذا التفكير وان ترسم سياسة جديدة تستطيع ان تواجه بها التطور التاريخي الضخم الذي تحققه الثورة اليوم وان يتخلص من عقابيل الماضي ومخلفاته التي مازالت مطمورة في أعماق الكتاب الذين عاشوا تلك الفترة وشاركوا فيها .

ولذلك فأنا اعتقد اننا بسبيل الى الكشف عن جيل جديد من الكتاب والصحفيين أسوة بالكشف عن الكفايات المختلفة التي ظهرت في مختلف ميادين الاقتصاد والعلم ودوائر الاعمال الجديدة .

أخطاء للرجال الذين أحببناهم

كنت أراجع أمس «تجارب» الطبع لكتابى « الجباه العالية » حين لمعت فى ذهنى فكرة خطيرة· هى دراسات وتراجم لاعلام من النابهين فى تاريخ مصر الذين لم تنصفهم الصحافة ولم يمنحهم التاريخ فى العهد الماضى حقهم الكامل فى ابراز عظمتهم ومكانتهم واثرهم فى محيط الوطنية المصرية بل لعلنا لا نعدو الحقيقة اذا قلنا اننا تجاهلناهم فترة طويلة حين كان من المقرر علينا ان نبرز عبقريات رجال الاحزاب والساسة الذين صنعتهم مدرسة سعد زغلول بعد ثورة ١٩١٩ والذين وصفهم كرومر عند ما طالب بانشاء حزب الامة ، البؤرة الاولى للحزبية المصرية « انهم رجال يلتقون بالانجليز فى منتصف الطريق ·· »

هؤلاء الذين كانوا أعزة على الاستعمار والاقطاع والقصر ، اذلة على الوطن والامة والذين من أجلهم غمطنا حق المجاهدين وتجاهلناه ··

ولكن اذا كان من حقنا اليوم ان ننصف هؤلاء الاعلام الذين طالما أغضينا عن مكانهم فى ثورتنا الضخمة المضطره على الزمن فى سبيل الحرية فان لهؤلاء الرجال اخطاء سجلها المؤرخون ، وهذه الاخطاء لا تشوه جهادهم ولا تتهمهم فى نزاهتهم ولكنها تعطى فقط صورة «الانسان» بطبيعته التى تخطىء وتصيب · ولكنها على كل حال أخطاء علينا دائما ان ننظر اليها ثمة ، وأن نرى مصدرها، وان نعد هذا العمل تصحيحا للتاريخ وتحريرا له من ان يكون مجموعة من الاكاذيب الملفقة لصنع بطولات موهومة · وليس بغض أبدا من قدر العظيم أن يكون فى حياته خطأ أو تصرفا ربما تكون قد دفعت اليه الضرورة أو بعض عوامل التسلط الاستعمارى الذى كان قويا فى ذلك الوقت ·

جمال الدين الافغانى

ولعل جمال الدين الافغانى وهو العملاق الضخم فى تاريخ ثورة الشرق على الاستعمار وابو الحركات التحريرية الحديثة جميعا قد أخذ عليه « الحدة » التى قيل

انها كانت تهدم ما تفعله الفطنة. وانه وهو السياسى الداهية والمثقف الباهر الثقافة العميق الاثر فى نفوس من يعرفونه . كان يحين أحيانا ازاء بعض التصرفات فيفقد نتائج عمله كلها ولعل هذا هو الذى جعله يعيش مشردا مضطربا لا يقر ولا يستقر

ومما يؤخذ عليه أيضا انه لم يكتب فلسفته العميقة التى كان يصوغها فى عبارات اخاذة لتلاميذه فى قهوة متاتيا وفى الجامع الازهر وان واحدا من هؤلاء التلاميذ لم يكتب لنا عن هذه الفلسفة الا تلك الصورة العامة الخفيفة التى تعرف منها ابرز عناصر دعوته .

الخلاف بين مصطفى كامل ومحمد عبده

وهناك من الاخطاء ما يحصيه بعض المؤرخين على مصطفى كامل ومحمد عبده وقد عاشا فى جيل واحد وهو الخصومة العميقة التى كانت بينهما والتى حاول كثير من أهل الرأى ان يزيلها ليحل بدلا منها وحدة للعمل فى سبيل مصر والحرية . ولكن أحدا لم يستطع ان يفعل . كان مصطفى كامل فى أول دعوته مؤيدا من الخديو . وكان لذلك أثره أبعد الاثر فى مدى القوة التى ظهر بها مصطفى كامل ولكن مصطفى سرعان ما تحرر من الخديو بعد موقعة دنشواى واستقالة كرومر وحضور «الدن غورست» المعتمد البريطانى الذى جاء يحمل سياسة الوفاق والتفاهم مع الخديو ..

وهنا نفض الخديو يده من تأييد الدعوة الوطنية التى كان يحمل لوائها مصطفى كامل . ومعنى هذا ان الخديو لم يكن يؤيد مصطفى للوطنية المصرية الخالصة ، وانما لغرض معين هو استجلاب صداقة الانجليز له وانتقاما من كرومر الذى كان يعامله بالاحتقار والازدراء الشديد كما سجل فى مذكراته بصراحة تامة .

وكانت هذه غلطة ولا شك من غلطات مصطفى كامل لم يذهب اثرها عن دعوته الى النهاية

وحبذا لو ان مصطفى لم يعتمد على عدة أشياء يحصيها عليه المؤرخون :

أولها الخديو وثانيها فرنسا وثالثها الخلافة الاسلامية فى تركيا

ولقد ظهر له بوضوح فى ابان حياته انه كان مخطئا فى اتجاهاته الثلاثة . ظهر له ذلك بالنسبة للخديو عند ما جاء الانجليز بسياسة التفاهم مع الدون غورست ، وظهر له بالنسبة

لفرنسا عند ما عقدت بريطانيا وفرنسا الاتفاق الودى عام ١٩٠٤ واطلقت كل منهما يد الاخرى فرنسا فى مراكش وبريطانيافى مصر .

ولقد استطاع محمد فريد ان يتحرر فعلا من المعانى الثلاث وان يتحول بالدعوة الى المصرية الخالصة ..

أما لماذا لم يتفاهم مصطفى ومحمد فريد فلذلك قصة :

كان محمد عبده أكبر من مصطفى سنا . وكان له موقفه المعروف الغامض الملتوى فى الثورة العرابية أيدها ظاهريا ثم تخلف عنها ثم عاد فأيدها فى مراحلها الاخيرة بعد أن استوعبت الوطن كله .. ثم نفى محمد عبده وأعيد بوساطة الاميرة التركية نازلى فاضل وكان قد عاد بسياسة جديدة ، هذه السياسة هى التأييد المطلق لبريطانيا والحرب والخصومة للخديو . ولعل هذا هو الذى جعله يبغض مصطفى ويحاربه وبصفه بأنه « الغر المأفون » ويحمل عليه صفيه وصديقه رشيد رضا فى المنار

ولعل الزمن وحده هو الذى حال بين مصطفى وعبده فانه بعد ان تحول الخديو عن الحزب الوطنى كان محمد عبده قد توفى عام ١٩٠٥ هذا فضلا عن ان محمد عبده كان يرى ان مصطفى يجب أن يكون واحدا من تلاميذه واعوانه هذا بالاشارة أيضا الى اختلاف النهجين . فالشيخ عبده كان رجلا دينيا على كل حال يأخذ السياسه من جانب الدين . أما مصطفى فكان سياسيا صرفا له أسلوبه العاطفى وطريقته الوجدانية ..

البارودى

ولعل البارودى وهو واحد من رجال الثورة العرابية والصديق الحميم للسيد جمال الدين الافغانى قد كان مضطرا عند ما وقع أول أمر أصدرته وزارة الخديو عباس بطرد الافغانى من مصر فى أول اجتماع لها تولت فيه حكم البلاد وفى هذه الليلة قبض على الافغانى وسيق الى السجن وأرسل فى اليوم التالى بأول باخرة الى الهند

ولقد عاش الافغانى ما بقى من حياته يذكر هذا الموقف للبارودى ويدهش للصداقة كيف يفسدها الحكم الى هذا الحد .. ويأخذ باللائمة صاحبه الذى رضى وهو صفيه أن يقبل هذا التصرف بالنسبة له .. وبعد ان كان جمال الدين قد تلقى وعودا كثيرة من عباس انه اذا تولى الحكم بعد والده توفيق أن يحقق آماله فى الحريه ..

ولكن عباس كان من هذه الاسرة الضالة التى كان يجرى فى دمها الغدر والخداع وكراهية مصر ومقت الحرية.

محمد فريد

وفى هذا المجال نذكر «محمد فريد» هذا القديس الذى وهب حياته وماله وشبابه لمصر، وضحى فى سبيلها بكل مايملك يأخذ عليه المؤرخون هجرته الاخيرة من مصر وخوفه من السجن .. ولكن هل يعد حقا سفر محمد فريد الاخير هروبا من القضاء والسجن . وان النفى بعيدا عن الوطن، وهذه المتاعب الضخمة التى احتملها وظروف الفقر والمرض والموت على هذه الصورة التى صورناها من قبل، هل لا تساوى السجن .. خاصة اذا علمنا أن هبة مصر بعد ذلك كانت كفيله بأن تحرره من قيوده وتفك عنه أصفاده .

ولكن من يدرينا ان الخديو كان يريد أن يقدم محمد فريد للحاكمة والسجن وحدهما ولماذا لا يكون هناك تدبير محكم لاغتياله كما اغتيل من قبل عدد من الاحرار بصورة أو بأخرى .

طلعت حرب

ومما يتصل بهذا فى حياة بعض أقطابنا ما أخذ على طلعت حرب من انه تدخل فى بعض الامور السياسية فى أيامه الاخيرة بتقديمه أوراق البنك التجارى المزورة التى حصل عليها الى بعض رؤساء الحكومات مما كان له أثره بعد فى محاربته واثارة الغبار حول تصرفاته والغض من قدر مكانته الاقتصادية ومكانة البنك انتقاما لذلك التصرف .. علما بأن طلعت حرب أمضى تاريخه فى العمل الاقتصادى كله دون ان يتعرض للجانب السياسى أو يشارك فيه بقليل أو كثير مما كان له أثره فى سلامة العمل وانتظامه والتحرر من خصومات السياسة التى كانت تكون ذات خطر على المؤسسة الاقتصادية الناشئة ..

وقد نذكر فى هذا الموقف رجلا من كبار رجالنا هو عمر مكرم، هذا الرائد الوطنى الصادق الذى كان أول من دافع عن حق الشعوب فى اقصاء الحاكم الظالم واسقاطه ..

عمر مكرم

يذكر له المؤرخون فى هذا الصدد عجزه عن الدعوة لنفسه. بدلا من الدعوة لمحمد على، ويأخذون عليه هذا القصور النفسى عن ان

يرشح نفسه حاكما لمصر كخطوة جريئة لتحرير مصر كليــة من الحكم العثماني ومن الحاكم الاجنبي ولكنه آثر التــدرج ورضى بأن يكتفى بالتحرر من الحاكم العثمانى وظن أن الامور ســتظل فى يده وان القوة الشعبية التى يسيطر عليها ستســتمر قوية مؤثرة ٠ وانه قد يستطيع بها فى المستقبل اخافه محمد على أو سحقه وابعاده كما فعل بالوالى خورشيد٠ وغفل عن ان محمد على كان غادرا وانه قد عمل منذ اليوم الاول على ان يحطم هذه القوة الشعبية ويسحق الجبهة الضخمة التى كان يقودها عمر مكرم بعد ان أغرى العلماء بالمال والضياع وأوقع الخلف بينهم وبين عمر مما مكنه بعد من نفيه الى دمياط ٠٠ دون ان يجد من يدافع عنه أو يثور لاجله ٠٠

عرابى

ولعلنا لانعدم ان نجد لعرابى بعض الاخطاء التى احصاها لــه المؤرخون وابرز هــذه الاخطــاء انخداعه « لدلسبس » فان هذا المهنــدس الفرنسى الذى حفــر القناة أحس بأن خطــرا تهــدد مشروعه بهجوم بريطانيا الغادر على مصر ٠ وكان عرابى قدفكر فى ردم القناة خوفا من ان يعبرها الانجليز وأعد مشروعه فعلا لهذا٠ وفى هذه اللحظات ارسل اليــه دلسبس يقول : « لا تردم القناة ان كل جندى بريطانى سينزل فى مقابله جندى فرنسى » وخدع عرابى أو تأخر فعلا عن تنفيــذ المشروع ٠ حتى اذا كشف الخدعة مؤخرا وبعث يأمر بردم القناة ومع الاسف كان الانجليز قــد اقتحموها قبل ان يصل الامر ٠

وبعد فهذه حقائق لا شك فيها ولكنها لا تنقص من اقدار هؤلاء الرجــال الذين احببنــاهم وان كانت تفتح أمامنا الطريق لفهم حقيقة تاريخنا ٠

هـــل لإرتفـــاع السن
أثر فى تغيير الآراء

هـذه قضية فكرية شغلتنى طويلا . مضيت أتتبعها فى عدد من المفكرين والأدباء ووصلت فيها إلى أن الفكر يتطور مع الزمن ومع السن ومع ظروف الحيـاة ، وإن كاتبا من الكتاب لا يستطيع أن يقول إنه عاش حياته فى حدود الآراء التى كان يقول بها فى مطلع شبابه . فان الرأى الأول يكون عادة صادراً عن نفس طلعة تغلب عليها الحماسة . والعاطفة . والاندفاع . والرغبة فى فرض وجودها . ويكون فى الغالب صادراً عن مجموعة قراءات عن بعض الأعلام والعظماء وهى لذلك تجىء والمثالية غالبة عليها . والخيال واضح فى مثاليتها . .

فاذا ما اندمج المفكر فى الحياة وبدأ يجرب الناس ويضطرب فى المجتمع ويرتطم بالحقائق عاد فغير رأيه ثمة ليستطيع أن يوائم بينه وبين نواميس الكون التى لا تقبل الرأى الحاد ولا تجد السبيل إليه بالطفرة ، وإنما هى ترضى بالتطور الحثيث على مدى من الزمن تجد النفوس فيه قدرتها على التحول والمتابعة .

فاذا وصل المفكر إلى سن الأربعين أو ما بعده . وقد خطفت الشهرة بصر الناس به . وأحس هو بهذا الاعجاب المصحوب فى الأغلب بالغنى والثراء ، بدأ المفكر يتحلل شيئاً فشيئاً من تزمت العلماء ومن الأصرار على الرأى ، ومن الخصومة القاسية ، ويدخل حياته لون

من المجاملة يظهر إرضاء الأصدقاء وإيثار الصـــداقة عن الفكرة الخالصة .

وكثيراً ما تجيء فى هذه الفترة امرأة جميلة رائعة قد انحدرت إليه كالفراشة بعد أن هزت شهرته النساء ، الذين لا يستثيرهن إلا العظماء الذين تتحدث عنهم الصحف والذين بلغوا مبلغ الثراء . .. فاذا صادف المفكر هذه المرأة المحبة العاشقة مال إليها .. واهتز لدخولها فى حياته فكان لذلك أثره فى حماسته للرأى أو إيمانه بالفكرة .

ثم يجيء إرتفاع السن مع الثراء مع الحرص على معانى المجاملة ، مع هذه الألوان من اعجاب النساء عاملا كبيرا يدعو إلى تغيير الرأى وتحوله ، لاشك فى ذلك ولا سبيل ، لأنه يجرى مع منطوق التطور و نواميس التحول .

ولذلك فأننى أعجب للمفكرين الذين يقولون أن أرائهم فى شأن من الشئون هى أرائهم فيها منذ عشرين أو ثلاثين عاما . كأنما هذه السنوات الطويلة ، وهذا الانتقال فى السن والوضع ليس له أثر ..

وإنى لأشك كثيراً فى أن مفكراً يظل على رأى واحد فى الحب أو الموت أو السياسة طوال حياته . ذلك ــ كما قلت ــ أن الخبرة المنوعة والتجارب المتعددة والأحداث المختلفة التى تصادفه فى المجتمع ، خلال رحلته الطويلة كفنان مغمور فى أول الأمر وما يصادفه من هزائم وانتصارات تفتح أمامه الأبواب إلى المجد أو تحول بينه وبينها إلى حين . كل هـذا يعطى المفكر حقيقة الرأى فى أمر الحياة وإذا هو

بعد ارتفاع السن ونضوج الفكر يراجع أفكاره وآرائه وأهوائه خلال سنوات الشباب فيجد أن هناك فوارق ضخمة بين الماضي والحاضر .

بل أن هذا الرأى ينطبق على حياة الناس أيضاً . وليس رجال الفكر فقط . فقد عرف فى حالات كثيرة أن الذين يتزوجون فى أول الشباب يغيرون آرائهم فى الزواج . وفى طابع المرأة التى يحبونها من ناحية اللون والثقافة والجمال ، بحيث تصبح الحياة جحيما ، وتجد الطريق إلى التغيير السريع .

وكثيراً ما يحس الناس عندما يرتفع بهم السن ، بأنهم لو أتيح لهم أن يعودوا القهقرى إلى أوائل الشباب لاختاروا دراسات وأعمالا غير التى اختاروها لأنفسهم ، بل لقد لوحظ أن كثيرا من الناس غيروا أعمالهم بعد أن قطعوا بها مراحل الشباب وتحولوا منها إلى غيرها ونجحوا فى أعمالهم الجديدة .

ويأتى فى حساب التحول عند المفكر ، الاحساس بارتفاع السن وأثره فى فكرة الخلود فالاحساس بالاقتراب من الموت يعطى رجال الفكر والفن تحولا فى التفكير فيه انحناء على المجد . وأننا لنعرف أن كثيرا من الأدباء أجادوا فى المراحل الأخيرة من حياتهم فأبرزوا انتاجا خالداً لم يتم لهم فى أول الشباب .

ولن يستطيع مؤرخ أن يفكر أمثال شو الذى مات بعد أن أربى على الستين قد كسب كل مجده الأدبى بعد سن الأربعين . وأنه لو مات

فى هذا السن لما عرفه الأدباء إلا كواحد من المجهولين . ولقد كان فنه الخالد فعلا هو ذلك الانتاج الذى ابتدعه بعد هذا السن ..

وكذلك شوقى . ألم يكتب فى الفترة الأخيرة من حياته هذا اللون الجديد من المسرحيــات الشعرية التى فتح بها فى الأدب العربى باباً جديداً .

هذا فضلا عن أن ارتفاع السن يعطى الكاتب الوضع النهائى لأفطاره وأرائه ومذاهبه . وعندنا فى مصر . إن طه حسين والعقاد وهيكل كانوا قبل هــذا السن يكتبون أى شىء من فنون الفكر والأدب . ولكنهم بعد أن ارتفع السن إلى الأربعين أو نحوها .. وجد كل منهم الفن الذى برز فيه ولون أدبه وأصبح صبغة حياته الفكرية . فكتب هيكل حياة محمد متجها ذلك الاتجاه التاريخى وكتب العقاد العبقريات متجها اتجاه التراجم . وكتب طه حسين هامش السيرة وغيرها متجها إلى تطعيم التاريخ بروح الأدب .

ولقد يكون أثر ارتفاع السن عكسيا تماما . فيجد المفكر أن وسائل النجاح متوفرة له فى ميدان آخر غير ميدان الفكر كالصحافة أو أى عمل آخر . فتراه ينصرف انصرافا تاما عن الأدب . ويحاول أن ينسى ماضيه كله أو يتجاهله مؤثراً الاتجاه الواقعى الجديد . حتى إذا سأل فى ذلك قال أن الفترة السابقة إنما كانت عبثا من العبث ومرجع هذا أن ارتفاع السن يكسب « الإنسان » صفة الواقعية والرغبة فى الحصول على أكبر قدر من الكسب . حيث يحس ببداية فترة الخريف التى تدعوه إلى مزيد من الحرص على الثروة ، فضلا عن

الاتجاه النفسى الذى يتمثل فى الرغبة إلى المتاع والترف وإحراز أكبر قدر من النعيم والهناء لتعويض الفترة السابقة التى كانت مليئة — فى الأغلب — بعوامل الفقر والاملاق .

وقد يؤدى ارتفاع السن إلى شىء من « البرود النفسى » حين يكتفى بعض المفكرين والكتاب بالشهرة الضخمة التى وصلوا إليهـــا فلا يحاولون التجديد أو الإبداع أو الجرى فى ركب الحياة . ومن ثم تأتى آثارهم الأخيرة ضحلة قليلة القيمة .

اتهم القصة المصرية

القول بأن عندنا فن قصصى هو « أدعاء » مع استثناء بضع قصص و بضع كتاب اما هذا الموج المتلاطم من القصص فلا يمكن أبدا أن يقف امام قواعد النقد الأدبى كفن له قوة الصمود أو البقاء .

والقول بأن ما ينشر فى الصحف والمجلات والكتب تحت اسم القصة خطأ بالغ وتجاوز لا شك فيه لمسميات الأشياء وسخرية بها وتنزل فى فهم المعانى فليست هذه التى تسمى قصصا الا صوراً باهته لقطاعات أو لمحات من من الحياة ليس فيها العمق ولا القوة ولا الصدق مما يجعلها خليقة بأن تقف فى موكب الأدب أو تجعل كتابها أهلا لأن يدرجوا فى عداد الأدباء .

وقد يمكن أن يطلق على اصحاب هذا الانتاج انهم صحفيون يكتبون باب التسلية ، كما يكتب صحفيون اخرون ابواب الأخبار البوليس ودوائر المحاكم .هذا القصص التى يظهر فى الصحف ليس فيه علامة واحدة من علامات الأدب . فلا هى تهز النفس ولا تغذى المشاعر ولا ترتفع بالنفس الانسانية الى معالم السمو .

وأنى اتهم جميع كتاب هذا اللون بانهم صحفيون محترفون يعملون فى

سبيل غاية واحدة هي رفع توزيع الصحفية التي يكتبون فيها . وانهم حين يمسكون اقلامهم للكتابه أنما يضعون امام اعينهم غاية واحدة .هي أرضاء صاحب الجريدة الذي سيدفع الثمن . ولقد عودتهم دور الصحف أن تراجع هذه القصص وفق تعليمات وملاحظات معروفة ، اشبه بالدستور المكتوب هي أن تكون القصة عاطفية مكشوفه فيها ميوعه وليونه وفيها عقدة واغراء وتشويق وفيها الحاح على الجانب الحسي . فاذا صادفت القصة هذه العلامات قبلت ونشرت والا اهملت...

أذن فليس واحد من كتاب القصه هؤلاء الا مؤمن بهذا المبدأ مقر به عامل على أنفاذه . وهو حين يدير القصة في نفسه قبل أن يكتبها حريص على أن يعد لها هذه الموقف ويرسم لها هذه الاحاسيس حتى يحصل على رضاء صاحب الجريدة الذي سيدفع الثمن ومحررها الذي سيراجع القصة

أذن فليس واحد من هؤلاء حريص على الفن القصصي في ذاته ، أو حتى بان يبلغ بفنه غاية الجودة لوجه الفن الخالص أو لمنح القصه ماهي أهل له من تراجع الطبيعة الآنسانية أو عمق النفس البشرية .

وهو حين يتطلع الى ماده قصتة في المجتمع لا يهمه أن يبلغ بها مبلغ الأستجابة الصادقة لأصداء الحياه في صراعها ونضالها وطبيعتها الخالصه وانما هو حريص على هذا الأفتعال الذي يخرجها عن الصدق.

*

وبعد فانى اتهم القصة المصرية بضعف خبره الكاتب في النقل من الحياة نقلا صادقا صحيحا . والقصد العمد هو في نقل قسم معين منها والحرص على تسليط

الأضواء على الجوانب المثيرة وتكبيرها وتجاهل الطبيعة ومصادمتها . فالفنان الحق هو الذى ينزل الى سوق الحياه ليواجه الطبائع والأخلاق ويعرض صورته من زواياها الانسانية المتعددة مع الأمانة والواقعية وإذا كان ذلك كذلك فاين هذا من الكاميرا التى يحملها احسان عبد القدوس مثلا . هذه التى لا تتجه الا الى جانب واحد من جوانب الحياة هو « الخطيئة » هو ثقب المفتاح فى غرفات النوم المغلقة وأن الصورة التى يلتقطها دائما انما يلتقطها من هذه الزاويه فقط :

واتهم القصة المصرية بالسطو على القصة الاجنبية . فاصبحت بذلك سخريه النقاد فى كل مكان . ليس فيها الا الشباب الساقط الذى يغرر بالفتيات ويهرب أو الفتيات الساذجات اللائى لا يقدرن عواقب الأمور فيستسلمن عند أول وعد كاذب . وليس فيها الا قصص المواخير . والتكلف . والسطحية . والألفاظ المبتذله

وليس فى القصة المصريه أصالة لأنها لم تكتب للفن بل كتبت للفتيات المراهقات والشباب المحروم وقد أعجبنى وصف لقصص يوسف السباعى جاء فية انها أشبه « بغزل البنات » منفوشه فى الحجم وسريعه الذوبان فى الفم ولا يقبل عليها الا الصغار ... وهذا القول فى وصف قصص السباعى يمكن أن يقال فى وصف عديد من القصص والكتاب .

اتهم الصورة القصصية التى يكتبها أدباؤنا بانها تكشف عن ضعف فى التجربه والخبره فهم يعيشون فى الأبراج العاجيه ويؤثرونها على اسواق الحياه بل وزاقتها هم بذلك لايخالطون الناس فلايحسون بالامهم ولذلك فهم يصوغون

قصصهم من اوهام الحياه لا من سفح الحياه ومن أين تأتى التجربه للكتاب بدأو أول أعمالهم فى الأدب عام ١٩٥١ أى آن عمرهم الأدبى لا يتجاوز السنوات الخمس ليكون لهم خبرة أو تجربه تمكنهم من فهم الطبعة الأنسانية وتعمق رواسبها وطواياها. هؤلاء الأدباء الذين لم تتح لهم ليس فقط فرصة الخبره والتجربة فى الحياة ـ بل أيضا فرصه الأطلاع والقراءه لنقل خبرات الكتاب الاخيرين

ثغرات فى حركتنا الادبية

أننا حين نتعرض للنقص الذى يواجه حركتنا الادبية ، انما نحرص على ان تكون منطقيين مع انفسنا فليس من المعقول أن نرى عوامل الانحرف وهى تحاول أن تفسد مقوماتنا الفكرية وتطمس معالمها ثم ندع هده الموجات لتمضى فى طريقها المغلوط دون أن نوقفها أو نصحح أتجاهها

اننا أبناء جيل واحد . نؤمن بحق الادب فى التجديد والحرية والاندفاع فى مجراه الطبيعى وتطوره المنطقى : ولكننا نؤمن فى نفس الوقت بحقنا فى أن نرد المنحرفين عن أن يحطموا ماوصلنا اليه. قد يكون هؤلاء المنحرفين مدفوعين بحس نية الى الخطأ أو ايثار السهوله أو التقاليد بحكم التجربة القاصرة أو تحت دافع البريق الذى يغشى الابصار احيانا . ولذلك فنحن نجدنا ملزمين احيانا بان نقف لحظة لنقول كلمه « أنتباه »

ونحن فى هذا الاتجاه لا نريد أن نقول كلاما عاما وانما نود أن نضع قواعد محدده نلتزم بها جميعا ونمضى فى حدودها .

وأول مانرتبط به هو اننا نبنى لا نهدم . واننا لا ننكر فضل الذين مهدوا الطريق . قد يكون من حقنا أن ننتقد اتجاهاتهم واهدافهم ولكننا لا نكفر

بهم على الجملة . وبما نرتبط به ايضا أن نلحظ شخصيتنا المعنوية الذاتية اولا فلا نفسدها بالاضافة التى تطمس معالمها الواضحة أو تدعها مدفونة تحت ركام من السلخ الممزقة المنقولة من هنا وهناك

وبما نؤمن به قوميتنا العربية وتراثنا الثقافى الضخم فلا نحتقره ولا نسخر منه ولا نفرط فيه

ونحن لا ننسى ماضينا البعيد . وبما نرتبط به لغتنا العربيه علينا أن نقربها الى اذهان العامة وذواقهم بما لا يذينها من الابتدال أو يحطمها كقوة جامعة للوطن العربى الكبير

وبما يرتبط بالمسئولية والكرامه وتقدير القيم الانسانيه ووضعها موضع الاعتبار فالكاتب صاحب القلم مسئول امام ضميره وامام الاجيال وأن ما يكتبه سيكون عميق الاثر فى نفوس القراء الذين يؤمنون بحق الكلمة المطبوعة فعلينا أن نحترم « قوة الكلمه » فلا ندع للقلم طريقة الاعلى اساس من التقدير الكامل للمسئولية الادبية .

وبعد فاننا لا نؤمن بهذه الشعارات الكاذبة الموهومة . وأنما نؤمن بان يقدم الكاتب عمله الادبى ويتركة للمجتمع يتفاعل معه وهو خليق أن كان اهلا للخلود أن يبقى ويخلد أما اذا لفظه فسيموت على الاثر ..

ليست أروج الاثار الادبية هى أجودها . وليس الكتاب الذى يوزع اكبر عدداً دائما هو الكتاب الناجح . فمعيار « البيع » ليس وحده المعيار الحق للحكم على القيم الادبية ولن تكون النهضة أبداً جهل ماهو عربى أو

كراهية هذا التراث العظيم أو تحطيم الجيل الرائد الذى تعلمنا عليه .

ولن تكون النهضة التحلل من كل مسئولية أو الخروج عن الطبع السوى فى الخالق الشخصى أو الاتجاة الفكرى .

*

وبعد فاذا نظرنا الى أنتاجنا الان استعنا أن نقرر دون مجاملة أو مواربه وبغير أن يكون هناك سبب من الاسباب يدعو الى التعنت أو الانحياز أو الخصومه . وان ما نسميه اليوم « أدبا » فيما ينشر فى الصحف المجلات الاسبوعية والشهرية على اختلاف صورها ومذاهبها ليس أدبا على الاطلاق وانما هو « أدب صحفى » لا أستثنى من ذلك الاقلة قليله من المجودين لفنهم .

أن هذا الذى يدعى اصحابه أنه « أدب » ليس الا صورا صحفية لا يمكن أن تثبت امام اضواء الادب القوية . واحكامه الصارمه . وليست تستطيع أن تبقى امام اضواء الادب الباهرة وخصم الفكر العاصف ذى الاحكام الصارمة

وأننى حين أصدر هذا الحكم لا اخشى لومة لائم . فقد آن الاوان لاقرار هذه الحقيقة وأعلانها والكشف عنها بعد أن تطاول الادعياء وملاؤ الدنيا صياحا بانهم ينتجوا أدبا يمكن أن تطبق عليه مقاييس الاحكام الادبية التى عرفها الناس منذ اقدم العصور . وعرفها الادباء فى الشرق والغرب

أن هذه القصص والكتابات الباهته السريعة التى تمثل اللحظات الماره من عمر الزمن لا يمكن ابدا أن تؤهل هذه الاسماء لأن تحتل المكان الحق فى دنيا الأدب والفكر .

فهؤلاء الكتاب قبل كل شىء محصولهم تافة اشد التفاهه . ولم يكن

هذا المحصول وحده كافيا لتخريج أديب . وأن طه حسين وزكى مبارك وغيرهم قد كدوا وجاهدوا وتعبوا بعد أن خرجوا من الجامعة ليمكنوا أنفسهم من الوسائل التى تؤهلهم ليكونوا أدباء بالمعنى الحق لكلمة الأديب

أما هولاء الذين تخرجوا بالامس القريب . سنوات معدودات . اصبحوا بعدها أدباء مشهورون تنشر أسمائهم فى صدر الصحف ويتحدث عنهم الناس فلا يمكن أبدا ان يكونوا اهلا للمكان المرموق فى دنيا الادب . وليس المعاصرون هم الذين يحكمون على الادباء وادبهم بالبقاء . وليس الاصدقاء والزملاء والفرق . وليست الصحف الحريصة على شىء واحد هو أن تنتشر وتقراها الالوف المـؤلفة وأن تستيطع التجاوب مع الالوف المـؤلفة من الاذاوق المختلفه والثقافات المتباينة لكى تقدم لها ماتهواه وما ترضاه وما ترغب اليه

وأننى لأ تسائل صادقا . هل الكتاب الذى يوزع عشرات الالوف . هل المجله التى توزع مئات الالوف وهل الكاتب الذى يملاء اسمه أعمدة الاعلانات وتجرى مؤلفاته بين الايدى هو فى مقياس الأدب أديب خليق أدبه بالخلود واسمه بالظهور ؟

أعتقد أن لا . وأن عظماء الكتاب وافذاذ المفكرين لم يكونوا مقروئين على هذا النطاق الواسع . وأن هذا الاتساع فى الشهره والبيع المؤلفات لن يكون فى يوم من الايام ولا فى أى مذهب من المذاهب مقياسا لعظمة الاثر الفنى وجودته وقوته وآثره ولم تكن الكتب الضخمة التوزيع فى أى بلدمن بلاد العالم الا الكتب الجنسية التى تتحدث عن الشهوات والغرائز والاهواء وتكشف ماوراء الستار وتدخل غرف النوم وينفعل كتابها الرجال بعواطف

المرأة أو كتابها النساء باحساسات الرجل . والعالم كله فى الشرق والغرب يقاسى هذا الفراغ الجنسي وهذا التطلع الى المجهول وهذه الرغبة الى ان يجد ما يدور فى اعماق نفسه مما يكتمه ولا يبوح به ، يجده مكتوبا منشورا . وأن عوامل الحرمان والكبت والزيغ النفس والاضطراب الحسى مع العقد النفسية الموروثه فى البيئات المتاخره والرجعية المضغوطه ، كل هذا يدفع الى التطلع للادب الرخيص وادب الجنسى والادب السائد وتيش .

وكل ما فى ايدينا اليوم مما يطلق عليه كلمة ادب هو من هذا النوع مع اختلاف فى المقاييس والتقديرات قربا وبعداً من الغاية التى تريدها الصحافة التى تفرض هذه الالوان على الكتاب وتدنيها من القراء وتروج لها وندفع لها الارقام الضخمة من الاجور وتنشرها على ورق زاه وفى طباعة أنيقة وأغلفة صارخة ولسنا فى قولنا هذا بالمجترئين فى الحكم وأننا الى ترك هذا « الادب » خمسة اعوام اخرى فان بقى منه شيء فى تقدير الأدباء والحكام والنقاد فاننا سنؤمن يومئذ بان ادبنا قد تحول الى هذا الاتجاه وأن هذه الظاهره التى نراها اليوم ليست ألا عنصرا اصيلا لأدبنا المعاصر ، اما اذا طوى الزمن هذه الألوان الباهته وسحقها سحقا وفرض غيرها مما هى اكثر رصانه واعتدالا وبعدا عن طرفى الخيط وقربا من معانى السمو النفس والقيم الأنسانية والمثل العليا فاننا نستطيع أذ ذاك أن نقول أننا كنا صادقين فى تقديرنا لهذا الأدب الصحفى

والأدب العربى المصرى المعاصر اليوم يمر بين تيارين : تيار الأدب المكشوف العريح الذى يبلغ احيانا مبلغا من الحرية يخرجه عن حدود البيئة ويدينه من الأبتذال وتيار الأدب الأسود الغليظ الذى يلح الحاحا منفعلا على تصوير اقمة العيش وظلمة الحياة

وقساوة الواقع . وهما تياران يردان الينا من خارج بيئتنا . يردان الينا من أدب المعسكرين الشرقى والغربى .

أما الأول فيذهب مذهبه فى التحرر ويكشف عن اساليب السريالية والوجوديه ويتعلل بالحرية التى تعطى للاديب ليقول ما يريد دون أن يرتبط باى رباط من عوامل البيئة والتقاليد . بل أنه يزدرى هذه القيود وينفر منها أما الثانى فيقول فيما يقول بالأدب فى سبيل الحياة فهو يعالج المشكلات الصغيرة اليسيره المتصله بلقمة العيش والكادحين والرزق . والأول أدب ساخر هادىء ينظر الى الامور فى احتقار واستهانه وتمرد والثانى أدب مظلم غامض فيه حقد وكراهية .

ولعل أبرز ما يتحدث عنه الكتاب فى الوقت الحاضر هو الواقعية فى الادب والألتزام والادب فى سبيل الحياة . وليس الحديث عن هذين الموضوعين جديداً كما يتراءى للبعض . وأنما هى الاسماء الجديدة فقط ، اما مضمونها وما يتصل بها فقد كان موضع البحث والجدل والنقاش فى مختلف عهود الأدب وفى اكثر من مرة تحدث الأدباء عن القديم والجديد . والرجعيون المجددون ، والأدب للادب والأدب للحياه

وأندلع الجدل هذه الموضوعات عام ١٩٢٦ وما بعدها . وعاد الجدل مرة اخرى بعد عام ١٩٣٦ على يد جيل جديد من الأدباء . وقد بدأ يتجدد الحديث حول هذه الموضوعات عام ١٩٤٧ وما زال هذا الجدل مستمراً . وأعتقد أننا سننتقل الى مرحلة جديدة فى عام ١٩٥٨ أذا سار الحال على هذا المنوال وقد اعتبر طه والعقاد والمازنى وهيكل الأدباء الذين كانوا يكتبون عام ١٩٢٦ بانهم قدماء واليوم يتكرر نفس الشىء أذ يعد الأدباء الجدد طه وتوفيق الحكيم من القداماء

ولكننا أذا قارنا معالم التيارات الأدبية نجدها مختلفة اختلافا بيناو بين الجيل القديم والجيل الجديد فقد كان هيكل والمازنى وطه حسين والعقاد قد دخلوا المعركة مسلحين بقوة كبيرة من الفكر وكفايه ضخمة من الدرس. اما الذين يحاولون التصدر اليوم لأحتلال المركز الأول فهم اقل الناس قراءة وثقافة سواء فى الأدب العربى أو الأدب الأوربى وأنهم يعيشون على القشور وليس عندهم من قوه البيان العربى أو عمق المعنى ما يشفع لهم فى أندفاعهم لاحتلال المركز الأول للادباء فى مصر والشرق العربى

وليست العبرة أبدا بالكتابه الصحيفة والقدرة على النشر فى المجلات والجرائد التى تخضع فى الاغلب لذوق القارىء العامه وهو ذوق هابط يمثل الطائفة العامة التى لاحكم لها فى الأدب ولا سبيل لها الى تقدير القيم الثقافية اما الدعوى بانهم يكتبون للجموع والشعب والطوائف المتوسطه والقليلة الثقافة فليس ذلك الأتجاه حجة فى أن يضعف مستوى الأسلوب أو الاداء الفنى لهذا الغرض وأن الكتابه للشعب لا تدعو الى النزول بالاسلوب الى هذا الحد الصحفى البحت .

ومن الثغرات الواضحة فى حركتنا الأدبية تسلط الصحافة عليهافالأدباء الذين لمعوا كانو حواريين خالصين لكبار الصحفين . بينما عجز الأدباء الذين تمسكوا بكراماتهم الشخصيه واعتزوا بانفسهم أن ينزلوا الى ميدان النفاق، عجز هولاء عن الوصول الى ذلك المكان .

ولعل الصداقة كانت العدو الاكبر فى دنيا الأدب والصحافة ، فهى التى تحرم من الانصاف وتضفى على الضعف قوة . ولو كان الأدباء المتصدرون منصفين لما بالغو فى شأن كتابات اصدقائهم فى نفس الوقت الذى تجاهلوا

.فية اثار أدباء مجيدين صادقين لأنهم ليسوا « أصدقاء » سهرات أو تجمعهم روابط خاصه .

ويمكن القول بان من ثغرات أدبنا المعاصر أن الحياة الأدبيه فيه تقوم على مجموعة من العواطف ولا تقوم على قواعد ثانيه من التقدير الخالص المجرد .

ولعلنا لا نستطيع أن نغفل ونحن بصدد دراسة ثغرات حركتنا قول توفيق الحكيم (١) « يجب على رجال الفكر أن يدقوا أجراس الخطر فالأمة تسير الى منحدر هابط الى السطيحة والأسفاف فى كل ما يمس شئون الفكر والثقافة والأدب والفن . نجد مظاهر ذلك فى اكثر الكتب والصحف التى تنشر ، فى اكثر ما يعرض فى دور السينما والتمثيل .

أن كل ما هو عميق وجدى يطرح فى حساب الصحف والمجلات . وقد أشتد التنافس فى طرح كل ما هو جدى مجد . وفى عرض كل تافه خفيف الى حد اصبحت فيه التفاهة والهزل والخفه والميوعةهى الاصل وهى القاعدة .

والى جوارهذهالسطحيةوالاسفاف يجىءهذاالغزوالأدبى من المعسكرين ممثلافى هذا العدد الضخم من الكتب التى ينشرها الشرق والغرب . . ما احرانا أن نقف منها موقف الحذر واليقظة والتوسط . فلا نقبلها كلها ولا نرفضها جملة . وأنما نؤمن بانفسنا أولا ونؤكد حقيقتنا المصرية العربية الخالصة ثم ناخذ وندع فى قوة الرجل الصارم الذى يستطيع أن يذيب فى معدته كل نافع وجديد وصالح ودون أن يتحول هو الى ببغاء أو يمسخ بصورة او أخـــرى .

---

(١) يونيو ١٩٥٥

فنحن لنا شخصيتنا القوية الواضحة ومعالمها الصادقة المحدودة . هذه الشخصية قد عاشت القرون وأرتطمت بمختلف الثقافات والغارات والحملات فلم تحطمهم هى وانما تحطمت هذه الموجات على شاطئها الصخرى الصلب .

ولسنا فى هذا نذهب مذهب الجمود أو الرجعية . انما نحن نحب الأدب الأصيل فى كل لغاية والوانه ونود أن ننهل منه ولكن لماذا ننحرف دائما فلا ناخذ من هذا التراث الضخم الا « الفتات » وهذه الالوان الباهته الغثة المريضة الرائعة .

لماذا نصر على أن ننغمس فى حمأه الالوان المتميعه المضطر به . ولماذا لا تذهب الا وراء هذا اللون من الأدب الجنسى الصارخ . كانما نريد أن نحطم كل مقوماتنا الاجتماعيه فى سبيل قرش القارىء .

ولست اضع فى حسابى أن هذا العمل الذى يقوم به كتاب الجنس لحساب جهة ما . أو أنه تاييد لاتجاه ، فما اظن أن أدبا من الآداب الخالده يحمل مثل هذه البذره من التحطيم . وانما هى حملة تهدف الى اثاره جو مظلم مكفهر حانق . يعمل على افساد العقول والاذواق بين طائفة معينة من الشباب الصغير الذى يتفتح على القراءة فيجد امامة هذه الألوان الرخيصه المائعة الرخوة فلا يصلح مطلقا لقيادة وطنه ولا لحمل امانة الدفاع عنة .

وكيف يستطيع جيل نشأ أبنائه وبناته ـ اليوم ـ على مثل هذه الصورة الصارخة من الكتابه الجنسيه أن يواجه الحياة بقوة وصلابة وأن يتحمل مسئولياتنا الضخمة فى هذه الفترة التاريخية من حياتنا ، ليحافظ على هذا المجد الذى اكسبتنا اياه الثورة .

أن السواعد التى ستحمل هذ العب لتحفظه وتحميه وتسير به لن تكون مشدوده فيها عناصر الصمود والفطام عن الصغائر . وفيها تقدير المسئوليات الاجتماعية كاملة .

أن هذه « الموجه » تعطى الحب صوره الذله والعبودية . وتقيم نظاما من الرق الحديث بعد أن هدمت مصر اوكار الرق القديمة التى صنعها الاستعمار . هذا الرق الحديث أنما هو سبيل جديد لمحاولة تحطيم شخصيتنا التى بدأت تنصب قامتها ، و هى رغبة فى منعنا من أن ننطلق لنكون أنفسنا من جديد

ونحن احرص الناس اليوم الا نعود الى اغلال العبوديه فى الاجتماع والادب هذة المره . بعد أن كانت ممثلة فى الخزبيه وجيش الاحتلال . أنها هذه المره أشد خطراً . لاننا لا نأخذ من الثقافة الغربية الا ما استهلكه اصحابها وكفروا به .. وأنما علينا أن نأخذ من كل الثقافات لبابها ولكننا لن نكون عبيداً لاى ثقافة .

وسيحملنا ايماننا بانفسنا أن تكون منصفين . فلا نتنكر لماضينا او اى امه من امم الغرب أو الشرق تنكرت لماضيها أو احتقرته أو امتهنته كما يحاول بعض كتابنا أن يفعل بنا .

لن نكون « ماديين » خالصين ولا « وجودين » خالصين ولن نذهب مع ادب الجنس ولا مع الأدب الاسود .

ولن تكون المرأه فى نظرنا ـ كما هى فى نظر كتاب الجنس ـ اداة فراش بقدر ماهى انسان يشارك فى الحياة . ولن نكون حريما فى حياتنا الاجتماعية كما تصورها قصصهم ولن تكون الحياة جوعا ورغيفا وظلاما وشقاء كما يصورها كتاب الادب الأسود

وسنرى رابطة الحب والعاطفة اسمى من العلب المغلقة وسراويل الجوارى. انها اسمى من ذلك بكثير . أنها العاطفة الضخمة التى صنعت بنقائها وروعتها العبقريات وأضفت على الأدب العالمية روعتها وسحرها.

وأنى لاذكر أننى وجهيت الى يوسف السباعى خطابا فى هذا الشأن قلت فيه : أريد أن أعرف رأيك بصراحة فى هذا الأدب الجنسى المتفشى الدى يحاول أن يطغى على كل فنون القصة . هذا اللون الذى تنشره المجلات لترضى قرائها ولتكسب به نقودهم دون تقدير لمدى الاثار الأجتماعية والنتائج التى تترتب عليها وما مسئولية الكاتب وتبعاته ازاء هذا الخطر . أن هذه الشخصيات المنحرفة التى تصورها القصص الجنسية لا تمثل الشخصية المصرية التى تعيش بيننا فاين شخصيتنا المصرية المتماسكة القوية فى ادب هؤلاء الكتاب ولماذا يكون اصحاب العواطف المنهوكة هم رمز شخصيتنا . ان فى حياتنا جوانب كثيرة متعدده فلماذا لا تظهر فى هذه القصص الا جوانب الحرمان والكبت والحبس والجوع ...»

وقد يقال أن هذا الأتجاه مأخوذ من الوجودية التى لاتؤمن بالمجتمع وهمها تحطيمه وتفكيك روابطه باشاعه الانحلالية فيه وتحقيق اللذة .

وأننا لننكر على أدبنا المعاصر أن يحطم ذاته أو يسحق وجوده حين يستحيل الى صورة مشوهة من الأدب الوجودى أو المادى ، فاننا نريد أن يصور أدبنا حياتنا فلا يستمدها من القديم ولا من مجتمع غير مجتمعنا . فنحن فى حقيقة أمرنا لسنا ماديين ولا وجوديين .

ولسنا فى هذا ندعو الى بتقييد حرية الكاتب أو وضع القيود حول قلمه

فاننا نؤمن بحرية الكاتب أشد الايمان ولكنى أثق بان مجموعة من كتابنا لا تقدر التبعة الضخمة التى وضعت على اكتافها حين تكتب .

وعندى أن كتاب القصه الجنسية أو التافهة ليسوا فى نظر القراء بالكتاب الذين يحترمهم أنهم عنده عامل من عوامل التسلية وليست هذه مسئوليه الأدباء يجد فى نفسهم ما يحمله على احترامهم الذين يجب أن يكونوا ـ كما يقول ـ توفيق الحكيم ـ « حراساً على القيم الحقيقة فى الفكر والفن وأن يجددوا ما شاء لهم التجديد ولكن داخل اطار الاتقان والتفوق والتجديد » .

أما الذين يقولون بشعبيه الأدب فنحن معهم فى أن يتصل الأدب بروح الشعب ولكن الشعبية شيء والعاميه شيء آخر منفصل عنه فالأديب مطالب بأن يستق مادة أدبه من روح الشعب ولكنه يفسد هذا الأدب حين يضعه فى الصوره العاميه . وليس الألتجاء الى العامية الا عجزاً وهروبا واحساسا بالنقص والقصور . ذلك أن الكاتب أنما يريد أن يصل الى نفس قارئه بأقوى بيان ولكنه يصطنع العامية لأنه لا يجد من اسلحته سواها وهو غاية العجز والقصور .

وبعد فانها « تبعه » و « ضمير » و « مسئولية » هذه هى العلامات الثلاثة لطريق كل كاتب وأن كل سخرية بهذه القيم هو اتهام لأصحابها بانهم لا يؤمنون بعصر ولا بالأدب ولا بشخصياتهم الذاتية .

أتهم القصة المصرية

(١) مما لوحظ بوجه عام ان كتاب القصه فى مصر تعوزهم دراسة دقيقة لأصول فنهم كما تعوزهم الثقافة العامة التى استطاع كتاب المقال والشعراء تحصيلها .

هذا ويتميز النماذج الشخصية التى تحفل بها القصص الجديدة بانها نماذج غير سوية . نماذج مريضه أو مضطربه أو عاجزة . وبذلك أعطى كتاب القصة للقراء صورة للقصه غير حقيقة ـ هى أنها ترف ذهنى وترويح . وأنها وسيلة للتسلية وليس الفن القصصى فى حقيقته كذلك .

وأنى أتهم كتاب القصة بانهم بذلك قد حولوا القصة من عمل فنى أصيل لا يدخل الى ساحته الا المقتدرون الى عمل صحفى أشبه باخبار دوائر البوليس

أتهم القصة المصرية بالانحلال فى المعانى والاخيلة . فهى مسرفة أيما اسراف فى تصوير اللذة الجنسية والشهوة العارمة . ووجهتها فى هذا الاثاره لا التحليل . والعبارات الرخيصة لا الفن . والفاظ السوق وشتائم الجوارى وكلمات الأحياء البلدية . وقد ظهر الأتجاه الوجودى الانحلالى فى القصه بعد أن أختفى فى البلاد التى دعت اليه كانما نأخذ نحن فضلات الناس .

---

١ أنظر صفحة ٦٥

وليس فى ذهن كتاب القصة ترقية ذوق القارىء ولا الارتفاع به الى المثاليه والذى قاله رشدى صالح فى نقد « جاذبية صدقى » يمكن أن يقال عن كل كتاب القصة الجنسيه هم مصر - « . الكون عنـــد الكاتبه يتلخص فى الموقف بين الجنسين أما بقية جوانب الحياة فليست موجودة . ماقيمه الأسلوب أذا كانت التجربه الفنية ضيقة الى أبعد حد » .

ومن أمثله عبارات قصص الحرمان صورة المرأة التى تقف من بعيد لتتطلع الى حبيب وحبيبه .

« وقد تبعت يوما فتى يبتسم لنفسه وهو يحمل طاقة زهر قطفها أثناء سيره فى الجبل يهبط واديا ويصعد تلا : وأنا وراءه على بعد وقلبى خافق

وأنحنيت اطل عليه من عل . وامط عنق أكاد اقصمه . فرأيته يتجه ناحية كوخ » .

من ملامح القصة المصرية : السخرية والتهكم . ولكنها مع الاسف ليست السخريه التى نراها فى الأعمال الأدبية الكبرى كقصص برناردشو وأناتول فرانس . انما هى سخرية مفتعلة تقليدية . ذلك لانها لا تصـــدر عن نفس مطبوعة على السخرية ولا فهم عميق لفن التهكم .

ذلك أن السخرية نفسها ليست احتقاراً للمجتمع ولا تهكما على قيم البشرية واوضاعها كما نراها فى بعض قصص الكتاب الناشئين الذين لم تبلغ خبرتهم الثقافيه ولا عمرهم الأدبى سنوات .

وأهمال اللغة فى القصة يجىء نتيجه لعجز القصاص عن أيصال الانفعالات والمعانى التى فى نفسه والتى يحس بها الى القارىء . اذأن قدره الكاتب اللغوية

هى الاداة التى تمكنه من أن يهز نفوسنا بالمعنى الذى يعرف كيف يصوره فاذا كان عاجزاً عن أن يجعل أنفسنا تنفعل بهذه المشاعر فاننا سوف لا نرى فى قصته الا قشوراً ويقول يحى حقى : أن أنحطاط اللغة عندنا يستتبع انحطاط الذهن وسقم التفكير .

أن السر فى نجاح القصة هو حياة الفنان نفسه . فاذا كان فاشلا لا يستطيع أن يقدم شيئا جميلا رائعا . وعندما تكون للقصاص هموم ثقافيه عالية أو تبعات روحية جاء فنه القصصى رفيعا رائعا .

ويقول أحسان عبد القدوس فى هذه المعنى « أن كل أدب هو ادب ذاتى» وكل قصه قرأتها أو ستقرؤها هى أدب ذاتى أو قصه ذاتيه . فالفن - من القصه بالذات - هو أنعكاس الحوادث او الموضوع فى ذات الفنان ثم التعبير عنه .

والكاتب فى طبيعة النفسيه لا يستطع أن ينفصل عن أثره الأدبى وأن جميع النماذج التى بين أيدينا تعطينا صوره هؤلاء الادباء الذين عانوا مشاكل الجنس والكتب والذين ولدوا فى بيئات منحله .واصحاب الجوع والحرمان وأصحاب الأدب الهروبى هم الذين بدأوا حياتهم فاشلين. والهاربون من الحياة الى أحلام اليقظة يظهرون فيما يكتبون من قصص .

وفى هذا يقول « فتحى وضوان » .. أن سر نجاح القصة هو حياة القصاص نفسه والمشاكل التى يكابدها والمشاغل التى تساوره والهموم الروحية التى تنازعه فالقصاصون العظام الخالدون ، لم يبدأ فنهم الا ببدأ الآمهم وبمولد مشكلة روحيه كادت تفتك بحياتهم وقد كانت قصصهم هى التعبير عن هذه المتاعب التى أنخنوا تحت عبئها . أو محاوله الفرار من المتاعب ونسيانها أو

محاولة الاستعلاء عليها أو الهزؤ بها ..

أن أكثر الذين يكتبون لنا هم اشخاص عاديون جدا فى المجتمع تحصر حياتهم داخل القيود التقليدية التى فرضها المجتمع .»

و بعد فجملة القول أن كتاب القصة فى مصر ليس عندهم من عمق التجربة ما يمكنهم من كتابة القصة الممتازة ، وأن كثيراً منهم يجربون خطواتهم الاولى فى عالم الكتابة ولذلك فهم أضعف من أن يوضعوا تحت مقاييس النقد . ويعتمد كتاب القصة على النقل من الادب الاجنبى مع تغيير الاسماء والمواقع . وقد ظهر أثر همنجواى فى اكثر من قصة لقصاصة معروفة . كما يعتمد كتاب القصة على نقل المجتمع بالاسلوب العامى نقلا سطحيا ليس فيه عميق .

وفن القصة لم يدرسه عدد كبير من الذين يتصدرون لزعامة القصة فى مصر بعد جيل الرواد (محمود تيمور . توفيق الحكيم) .

والرصيد الضخم الهائل من تعمق الأدب العربى والتجربة الشخصية غير متوفر لكتاب القصة ، أما الغرور فانه موجود فسرعان ما يعطى نشر اسم كاتب مرة أو مرات الفرصة ليضاف اسمه الى الاعلام .

ويمكن القول بأن القصة التى نقرأها قد أستدعها ظروف رواج الصحف كباب من ابواب التسلية وليس كعمل أدبى خالص تنصب له الموازين،

وهذه الضجة الكبرى التى تثار حول القصة فى مصر ليس مصدرها أن الفن القصصى قد تاصل فى مصر أووصل الى القمة وأنما معناه أن الموجة العاصفة التى تمر بالادب قد وصلت الى نهايتها وبقى أن يحكم الزمن على مدى صلاحيتها للبقاء .

سعد زغلول

رأس المدرسة الحزبية فى مصر

ظل الناس وقتا طويلا يظنون أن سعد زغلول قديس وطنى . وذلك تحت تأثير التهريج السياسى . والاوهام التى صنعتها الصحف وايدها تجار الوطنيه منذ عام ١٩٢٠ حتى اليوم . فلما أنقسمت الحزبيه وأخذت تتصارع وفقدت عند الناس جلال مظهرها وأمطر الزعماء بعضهم البعض وأبلا من الاتهامات تكشفت الحقائق .

كان الناس يظنون أن سعد قديسا وقد كذبتهم حقائق التاريخ . فسعد رأس المدرسة التى جاءت بعد ثورة ١٩١٩ ، هو الثمره الاولى لحزب الامه الذى صنعه اللورد كرومر عام ١٩٠٨ ليحارب به الحركة الوطنية التى كانت تمثله أذ ذاك فى جهاد الحزب الوطنى : مصطفى كامل ومحمد فريد وقد أعلن حزب الامه منذ اليوم الاول أنه يقبل الالتقاء بالانجليز فى منتصف الطريق .

وليس صحيحا ما يقال من أن سعد وشعراوى وعبد العزيز فهمى هم الذين وضعوا بذور الثورة . فلم يكن من المعقول أن لقاء هؤلاء بالمندوب البريطانى هو العامل الرئيسى فى أندلاع ثورة ضخمة جليلة الخطر كالثورة المصريه

عام ١٩١٩ . ولا تقوم الثورات نتيجه لمثل هذه المقابلات ، وأنما تقـــوم نتيجة لتوجيه دائب طويل المدى يتغلغل فى نفوس الامم سنوات طويـله حتى ياتى اليوم الذى ينفثىء فيه هذا الشعور وينفجر بصرف النظر عـــن الأشخاص .

وقد سمى ذلك اليوم المهين الذى قابل فيه الزعمـــاء الثلاثة المندوب البريطانى بعيد الجهاد (١٣ نوفمبر ١٩١٨) ولو اننا قرأنا المضبطة الرسميه للحديث الذى دار فى ذلك اليوم لخجلنا حتى من مجرد ذكـره .

فى ذلك اليوم قال سعد للمندب البريطانى هذه العبارات بالنص : « متى ساعدتنا أنجلترا على استقلالنا التام فاننا نعطيها ضمانه معقولة على عدم تمكن أي دولة من استقلالنا والمساس بمصلحة أنجلترا . فنعطيها ضمانا فى طريقها للهند . هى قناة السويس بان نجعل لها دون غيرها حق احتلالها عن الاقتضاء . بل نحا فيها على غيرها ونقدم لها ما تستلزمة المحالفه من الجنود . »

وفى حديث سعد هذا ثلاث هنا : تسليم قنـــاة السويس . وقبول الاحتلال . والموافقه على الدفاع المشترك .

وأذا كان ما قيل من أن كرومر خلال وجوده فى مصر كان يهدف الى أعداد مصريين ليحكموا مصر باسم بريطانيا فان هذا قد تحقق الى أبعد مدى فى إختيار سعد زغلول .

ونستطيع أن نرجع الى تاريخ سعد زغلول قبل ثورة ١٩١٩ وقبل الحرب العالميه الأولى فنراه واضحا لا غموض فيه . فقد عاصر حركة عرابى وهى اكبر حركة شعبية فى عصره فلم يعرف له فيها دور واضح . وعندما قام مصطفى كامل بحركته وقف فى صفوف حزب الامه وحارب الوطنى الفتى . وعندما صاهر مصطفى

فهمى صديق الانجليز الوحيد فى مصر ، والوزير الذى حكم مصر أثنى عشر عاما متواليه كان أنما يريد أن يؤهل نفسه لمنصب الوزراه .

تولى مصطفى فهمى وزارة الاستسلام المطلق للانجليز من نوفمبر ١٨٩٥ أى نوفمبر ١٩٠٨ وفى خلال حكمه باع البواخر المصرية بابخس الاثمان الى شركة (الن والدرسن) وعددها ١١ باخره قدرت بمبلغ ثلاثه ملايين جنيه و نصف مليون وقد باعها الوزير الشريف بمبلغ ١٥٠ الف جنيه

وقال مصطفى فهمى أننا مدينون لانجلترا بثروتنا وسعادتنا وهنائنا .

وفى عهده وقعت أتفاقيه السودان . وانشىء حزب الامه. واحتفل بوداع كرومر .

وقد عين مصطفى فهمى صهره سعد زغلول وزيراً فماذا فعل سعد زغلول انسحب من لجنة مشروع الجامعة عقب هذا التعيين وكان نائبا للرئيس وتبين أن انسحابه كان تحقيقا لرغبة الاحتلال لكى يحبط المشروع . وقد اصاب المشروع الفتور فعلا بعد أن تركه سعد .

وقال مصطفى كامل : كيف يهتم سعد المستشار بالاستئناف بمشروع علمى ثم ينسحب منه بعد يصبح وزيراً للمعارف .

واتجه سعد الى انشاء الكتاتيب بعد أن جمد مشروع الجامعة . وطلبت الجمعية العمومية جعل التعليم فى المدارس الاميريه باللغة العربية فاعترض وزير المعارف على هذا الاقتراح وقال بالنص :

أننا أذا فعلنا ذلك أسأنا الى بلادنا وألى أنفسنا اساءه كبرى .

وقد كانت صدمه لسعد زغلول أن رفضت الجمعية العمومية اقتراحاته وأقرت

المشروع بالاغلبية العظمى ودافع سعدمع الأسف عن سياسه الاحتلال فى التعليم.

وكتب مصطفى كامل يقول : أن الناس قد فهموا الان بأوضح مما كانوا يفهمون من قبل لماذا أختار لورد كرومر لوزاره المعارف صهر رئيس الوزارة الامين على وحيه ، الخادم لسياسته .

وعندما احتفل بتوديع كرومر . طعن المصريين وقال أن سعد زغلول قاوم دنلوب وقيل فى الرد على ذلك أنه أنما فعل ذلك ليكون أشد على مصر من دنلوب واخلص منه لرغبات الانجليز .

وأن كان سعد قد اصدم بدنلوب فانما فعل ذلك لاعتداده بشخصيته وليس لمصلحه مصر . ولم يعرف عنه أنه احتلف فى أمر من أمور الوطن !

وعندما قام فريد بالدعوة الى المطالبة بالدستور واجمعت الامة عليه . صرح سعد بان مصر لا تصلح للحكم النيابى.

وعندما عين وزيراً للعدل سن قانونا باحاله تهم الصحافه الى محاكم الجنايات وفى عهدة - ١٩١١ - حوكم محمد فريد بايعاز منه وحكم عليه بالحبس ستةشهور كما حوكم عبد العزيز جاويش . وأغلق صحف الحزب الوطنى واحده بعد الاخرى . واشترك فى وزارات مصطفى فهمى وبطرس غالى ومحمد سعيد ووافق على اتفاقية السودان .

ثم جاء الوقت الذى حدده الانجليز للدور الذى قام به سعد زغلول :

نفى الانجليز جمع زعماء الحزب الوطنى الى الخارج . واعلنت الحرب واعلنت الحماية على مصر . فكان سعد زغلول أول من استقبل مندوب الحماية

وادلى الى « المقطم » الاغر ! بحديث قال فيه أنه استبشر خيرا بمقدمه .

وتولى سعد زعامـة الامة اعتباطا ، كان فى سن مرتفعة . وكان مريضا معتل الصحة فى الوقت الذى وكلت اليه زعامه الامة !

ولكن كان سنادهفى زعامته اشىء هام هو رضاء الانجليز عنه واعجاب كرومر وصهره مصطفى فهمى به اما ماضيه فلم يكن شيئا يشرف أو يحمل على الاعجاب .

ومن صفحات ماضيه غير ماذكرنا موقفة يوم ٩ فبراير ١٩١٠

عندما وقف وحدة فى الجمعية التشريعية يدافع عن مطالب شركة قنال السويس المنحلة التى أممها جمال عبد الناصر ـ لمد عقد امتياز القنال أربعين عاما بعد موعد نهاية عقدها أى من ١٩٦٨ الى عام ٢٠٠٨ .

وكان الوزير متحمسا لذلك . شديد الحماس . قوى العارضة فى تاييد المشروع . يوافقه رئيس الحكومة « بطرس غالى باشا » الذى قتل فى ٢١ فبراير ١٩١٠ قبل أن يتم نظر ألمشروع . وقال التحقيق أن تاييد المشروع هو سر اغتياله .

وفى ٤ أبريل ١٩١٠ عاود هذا الوزير تاييد المشروع . ولكن المجلس لم يأخذ برأيه ورفض أغلب النواب المشروع . وصفق النواب . وصفقت الشرفات الغاصة بالزائرين . وانهزم سعد والمندوب البريطانى .

وبدأت مظاهره لم تتكرر فى تاريخ مصر : خمسة عشر الفا من المصرين كانوا قد تجمعوا خارج القاعة . فما أن عرفوا بالقرار حتى طافوا شوارع القاهرة بموسيقاهم وأعلامهم .

وكانت أول مظاهرة ضد الاحتلال : ثم ماذا ؟ .

ثم أصبح هذا الوزير بعد ذلك زعيم مصر قاطبه . واصبحت هذه الالوف الخمسة عشر التى هتفت بسقوط مشروعه ، تهتف له: يا لسخريه القدر حين يصبح صنيعة الاستعمار زعيما لوطنه .

*

يقول جورج لويد فى كتابه مصر منذ عهد كرومر يصور سعد زغلول « بفضل مجهود اللورد كرومر أنشىء فى مصر فى اكتوبر ١٩٠٧ حزب جديد هو حزب الامة وصحيفه الجريده .

وكان اكثر أعضاء هذا الحزب بعثا للامل رجل أصبح أسمه فيما بعد اهم الاسماء فى تاريخ مصر الحديثة . ذلك هو سعد زغلول . ولما كان سعد قد أختار لنفسه مهنه المحاماه فقد وقع علية اختيار الأميرة نازلى فاضل ليكون محاميها ووكيل قضاياها .

وقد أوحت اليه أن يتعلم الفرنسية . وكانت الخطوه الثانيه من خطواته اقترانه باسم مصطفى فهمى رئيس الوزراء الذى كان صديقا لدولتنا . مواليا لبريطانيا .

وقد كان سعد فى تلك الفترة من حياته قد ظفر بعلاقات سياسية من طبقة عاليه وكان مؤمنا بالصداقه البريطانيه . وخصما شديدا قويا لسياسه الخديو ونشاطه السياسى ولذلك كان لا مناص لكرومر اذا اراد أن يشجع الرأى العام المصرى السيامى الموالى لبريطانيا واذا ارادفى الوقت نفسه أن يقدم عربونا لصديقه مصطفى فهمى أن تختار سعد زغلول لوزاره المعارف المنشأة حديثا .

بقى أن أحدثك عن الدور الذى قام به سعد :

كانت الاحكام العرفيه قائمة فى ذلك الحين . وكانت الصحف لا تكتب حرفا واحداً الا باذن الرقيب . وكان فى امكان السلطات الغاصبه ـ أذاشاءت أن تجعل خبر القبض على سعد فى نطاق حديدى لا ينفذ منه ولـكنها هى التى سمحت للصحف بنشر الخبر والتعليق عليه.

بل طبعت السلطه على نفقتها مئات الالوف من النشرات معلنهأمر القبض على سعد وصحبه . ونشرتها فى طول البلاد وعرضها . لتلفت نظر الامة الى الزعـيم الجديد فى الوقت الذى كانت السلطه تخشى فيه أن يستعيد الحزب الوطنى سيطرته على الجمهور فيوجد الحركة التوجه الصحيح الذى تحاول انجلترا تفاديه .

وحدث ماتوقعه الانجليز. فبالرغم من ماضى سعد وموقفه من الحركة الوطنيه فان الشعب الطيب نسى كل ذلك .

وهكذا اشتعلت الثورة وتعالت الاصوات هاتفة « بالاستقلال »

ووصلت ابنائها الى سعد وصحبه فى منفاه فاندهش لها لأنهم لم يعملوا لها ولم يكونوا يتوقعونها .

وخدعت مصر أى خدعة بوطنية سعد زغلول فاسلمت قيادها له مغمضه العينين تحت أغراء الالفاظ الرنانه

أنه زعيم المصادفة البحته . الذى تسلم آمال شعب فى الوقت الذى خلافيه العرين من الاسد . الاسد هنا هو بالطبع : قديس الوطنية « محمد فريد » تسلم هذه الامال التى رباها مصطفى كامل ومحمد فريد وضحيا فى سبيلها بحياتها

وما يملكان .. وضعت الظروف هذه الامال الغالية بين يدى الرجل الذى كان خصم الحركة الوطنيه وجلادها .

و بفضله حدث الانحراف الذى أصاب الوطنية المصرية فانتقلت من الطريق السليم الثابت الصريح الى أسلوب القضايا والمحامين .الدوار الملفوف المضطرب لم تجر على لسان سعد كلمة « الجلاء » ، كلمة الحزب الوطنى الصريحة الواضحة . وقال سعد كلمه أخرى . « الاستقلال » وهى كلمه غامضة مبهمة مطاطه غير واضحة ولا محدودة .

وحارب سعد الحزب الوطنى أعنف الحرب وسخر منه وحارب سعد كل خصومة بكل وسيله ولو كانت غير شريفه .

كانت الفاظه تنطوى على الخداع والتضليل . فيها مظهر براق يثير النفوس ولكنه فى حقيقته « الماء » الذى وصفه سعد على الثورة التى قامت بغير قيادته وفى غيبته .

ولما اسلمت الامه له قيادها . مزق وحدتها فى سبيل الخصومة الشخصية . ولم يستطع أن ينكر ذاته وغروره فى سبيل الحفاظ على القوة التى فى يده . فضرب الانجليز به خصومة وضربوا خصومة به . فمكن للخلاف الحاد وأمات الروح الوطنية الفواره .

ونقل معركة الوطنية من ميدانها الاصيل فى الصراع مع الغاصب المحتل الى الصراع بين أبناء الوطن نفسه . ولكسبيل التنازع على العظمة التى القاها لهم الانجليز وأطلقو عليها « الحياة الدستورية ».

ومن يومها أصبحت الحياة السياسية المصرية سلسة من المؤامرات

والمناورات فى سبيل سقوط وزير وتولى وزير آخر.

وتحت ضغط شهوة الحكم رقض سعد أن يظل زعيما وطنيا . وكان هذا أول الوهن فقد خدعه كدونالد خدعه كبرى حين قال له أنه يستطع أن يحل معه « القضيه » المصرية وهما يتناولان فنجانا من القهوة .

وسعد زغلول هو أول من قبل بدأ « المعارضه » والجلوس مع الغاضب على مائدة واحدة وأول من اجاز فصل قضية السودان وتجميدها . ولم يلبث أن صرح هذا التصريح الخطير « الأنجليز خصوم شرفاء معقولون » ولم يكن قدوة للشعب فى تصرفاته . بل كان متعاليا وأرستقراطيا . ولم يؤثر عنه أنه أتصل بالفلاحين أو العمال على وضع شعبى .

وفى بياناته عن مشروع ملنرووح الرجل الميئوس الذى يرى أن شيئا خير من لا شىء . ولم تكن فكرة « الجلاء » يوما من برنامجه .

وعندما طرد الجيش المصرى من السودان وسئل عن موقفه قال ليس عندنا تجريده . وكانت صيحة سعد الانتخابيه « الاخلاص فوق الكفاءة . »

وعندما قتل زعيما حزب الاحرار الدستوريين حسن عبدالرأزق واسماعيل زهدى وهاجم الوفديون دار الأخبار التى كان يحررها أمين الرافعى وسأل سعد قال : لاتطلبوا منى حماية انصارى من خصومى .

ولم يتقدم للامه ببرنامج كامل وكانت سنة اسنتها الزعماء من بعده

وعندما أصدر التوكيل أختلف مع الاحزاب على صيغته وغلب على الفاظه الاجمال والابهام . وقال أن وكالة الامة قانونيا وشرعيا تسقط يوم

اجتماع مجلس الامه . ولكن سعد ظل يذكر التوكيل . والواقع أن التوكيل كان لهيئه خاصة تفرقت وتمزقت .

وعندما قتل السردار فر من الميدان فراراً مخزيا وأستقال واعطى الفرصة لمن خلفه للتسليم بكل مطالب الأنجليز وأذعن لرأى الأنجليز حين أصروا على الا يكون رئيسا للوزراء .

واختلف رأى سعد فى الدستور قبل الحكم حين قال : أ نى كلما قرأت دستور ثروت باشا أعترتنى الحمى وأخذنى الدوار . » وحين وصل الى الحكم بعد شهور . وقال عنه أنه موضوع على أحدث النظم العالمية

وعندما ولى الوزراء أسند المالية الى توفيق نسيم ورئاسة مجلس النواب الى احمد مظلوم وقد كانا من خصوم الوطنية .

وقد وضع سعد نفسه موضع القداسه حتى أنتشرت على السنة الناس الألفاظ العجيبه المليئة بالاكاذيب والتضليل .

ومن هذا عباراته « أن فى احراج زغلول احراج للامة . لو رشح الوفد حجرا لانتخبوه . الاحتلال على يد سعد خير من الاستقلال على يد عدلى »

*

ووقف سعد من خصومه موقفا غاية فى الضعة . فقد كان ديكتاتورا بطبعه عنيفا فى خصومة . شخصة اهم من القضية الوطنية ،

حارب وفد المفاوضات برئاسة عدلى . وارسل المندوبين والبرقيات للانتقاص من قدره . واعتمد على ثقة الشعب .

ولم يعرف بالاناه . بل عرف بقلة الصبر وسرعة الغضب ، مما صرف عنه اعوانه وانصاره . ولم يبق حوله الا الخاضعين الذين يطمعون فى المناصب

دون الأهداف .

وقال سعد فى هذا الأتجاه « الأنانى الفردى » وددت لوان أجعلها دولة زغلولية لحما ودما .. » مبررا بذلك تصرفاته فى تعيين أهلة واقاربه وبالرغم من أزهريته « تنكر للذين ودافع عن القوانين الاوربية . ولجأ الى الصلاه لغرض واحد هو كسب الازهريين الى صفه .

وقد وصف ملنر الوفد على عهد سعد زغلول « أن هيئة مؤلفة من اعضاء اكثرهم ليسو من الغلاه المتطرفين . بل اصلهم من حزب الامةالقديم ، الذى الذى كان غرضه التقدم الدستورى تدريجا بخلاف الحزب الوطنى الذى هو حزب الثورة ومعارضة الانجليز .. »

وقال ملنر أن الهيئة المستحقه للاعتبار والمعروفه بالوفد والتى يرأسها سعد زغلول باشا والتى تتسلط على العقول المصريه تمام التسلط .

ولو فى هذا الحين على الأفل - مؤلفه اعضاء اكثرهم ليسو من الغلاه المتطرفين . بل أصلهم من حزب الامةالقديم.الذى كان عرضهالتقدمالدستورى تدريجيا بخلاف الحزب الوطنى الذى هو حزب الثورة ومعارضه البربطانيين

ومن أدلة غطرسته وطغيانه أن طلب اليه.ثروت العودهالىالوحده فكتب اليه سعد يقول « أمامك المنابر العامه فاعلها أن وجدت سميعا . والجرائد السيارة فاكتب فيها أن وجدت قارئا . والنوادى الخاصه فتحدث فيها أن وجدت نصيرا .. ما أنت بزعيم فى هذه الأمة ولا رئيس حزب فيها حتى تكون هناك أهمية لخلافك أو وفاقك .. »

وبالرغم من هذا فان سعد عندما فرض الأنجليز ثروت رئيسا للوزاره

دونه قبل هذا الوضع وصافح ثروت

ومن أيات « شرفه » أن محمد فريد الزعيم المصرى لمنفى فى برلين أرسل برقية اليه بعد تشكيل الوفد المصرى هذا نصها.

« نحيي فيكم الوطن الغائب . ونرجو لكم كمال التوفيق والنجاح » ورفض سعد أن يجيب .

وعندما ذهب الطلاب الى سعد فى باريس يعلنوه بان محمد فريد مريضا فى برلين وفى حاجة الى الدواء وطلبوا اليه من مال المصريين الذى أرسل اليه ما يعين الزعيم البطل ، رفض سعد بشده وقال أنه لايعطى لمجنون ؟

وقال مصطفى الشوربجى أن سعد زغلول كان يريد أن يكون ملكا على مصر قال علوبه باشا (٧ ديسمبر ١٩٢٣) أن سعد بعد وصوله الى باريس من منفاه للدفاع عن القضية المصرية وعلم أن ولسون رئيس الولايات المتحدة قد اعترف بالحماية على مصر . « بدأ سعد يقول لنا يكرر قوله بالا أمل لنا فى شيء وأن واجبنا قد أنحصر فى تنظيم هزيمتنا . وبأن علينا أن نرجع الى مصر متفرقين حتى لا تقع علينا مسئولية الفشل .. » وقال الشوربجى « أن سعد الح على عدلى فى الحضور الى باريس فحضر . وسعى سعد حتى مهد لنا طريق المفاوضات مع ملنر .. وكان يطمع فى الملك .

ومما سجله عبد العزيز فهمى فى مذكراته « أن سعد كان يقول لملنر شعبي يريد كـذا وانه حين فاتح ملنر فى عرش مصر صدمه ملنر صدمته ولحقه الياس من أول صدمة فى الوقت الذى كانت الأمة فيه تنادى باسمه .

*

وبعد فلعل هذه الصوره تعطيك حقيقة المدرسة السياسية التى صنعها سعد زغلول وعاش عليها زملائه وتلاميذه بعد ثورة ١٩١٩ الى أن حطمتها ثورة يوليه ١٩٥٢ .

تصفية حساب الماضى

يعود ٢٣ يوليو هذا العام ومصر قد تحررت من الاحتلال بفضل الذين صنعوا يوم ٢٣ يوليو ، حققوا المعجز ما عجز عنه الساسة والزعماء والقادة الذين لمعت اسماؤهم ـ بالحق وبالباطل فى خلال أربع وسبعين عاما . سواء منهم الذين جاهدوا فعلا واعوزتهم الوسائل أو الذين نقلوا الحركة الوطنية الى جدل السياسه ومناوراتها .

وكان لابد لى أن أصفى حسابى مع هذه الفترة بعد أن بدأت دراستى التاريخية والوطنية عنها عام ١٩٤٧ وعشت مع فصولها واحداثها ـ فى مراجعها وفى واقعها الفعلى واكتويت بنارها فسجنت وحقق معى وصودر كتابى ، أخرجوا من بلادنا ، وجمعه الضباط الانجليز أنفسهم من الباعة وقدمت من اجله للمحاكمة . ووقف الرجل الشهم الذى لا انسى شهامته ـ فتحى رضوان ـ يقول لى فى مكتبه : أن كل ماجاء فى هذا الكتاب حق وصحيح . وأنه قد قال ذلك لرجال النيابة .

ولقد كان هذا عاملا فعالا دفعنى الى أن أواصل حملتى على الانجليز واذنابهم والأحزاب والقصر فى كتبى التى صدرت على التوالى ، مناورات

السياسة » و« بين لاظوغلي وقصر الدبارة » و « صفحات سوداء من تاريخ الأحزاب السياسية » وقد أثارت هذه الكتب أذذاك ثائرة الاحزاب وأبناء المدرسة السياسية المعروفة التى تكونت نواتها بتاليف حزب الأمة عام ١٩٠٧ وتبلورت فى صوره زعماء التوكيل الذين تفرعت عنهم الاحزاب السياسية بعد عام ١٩٢٢ وهى فى مجموعها مدرسه واحدة مهما اختلفت وتصارعت وكان على رأسها سعد وعدلى وثروت .

وكنت قد سبقت فى تحديد هذا الأتجاه رجلين ما أظن انى قرأت لغيرهما قبل أن أبدأ هذه الدراسة هما السيدان عبد الرحمن الرافعى وفتحى رضوان وعلى ضوء أتجاههما أخذت أدرس هذه الفترة وأنى لاذكر أن أستاذنا الرافعى ارسل الى خطابا بعد صدور كتابى « أخرجوا من بلادنا » ياخذ على حماستى فى عرض التاريخ ويردنى الى شىء من الاعتدال . وقد ناقشته فى ذلك وقلت له أن بيننا فارق الأتجاه فانا أؤمن بان التاريخ مادة لدنة يمكن توجيهها لدعم الروح القوميه وتعميق المفهوم الوطنى فى فترة كان الاحتلال يجثم على صدر البلاد . وكان الأستبداد السياسى ممثلا فى القصر والاحزاب والساسه والأقطاعيين يحاول أن يرسم الدجل السياسى والأوهام الحزبية التى كان رؤساء الوزرات وزعماء الأحزاب يخدعون بها الشعب فى صوره بطولات ومواقف خالده .

ولا أريد هنا أن أعيد ما كتبه فى هذه المؤلفات فقد مضت المناسبة التى وضعت من أجلها ولن تعود . ولكننا الآن وبعد أن تحرر التاريخ فى هذه الفترة من جميع القيود التى كانت تحول دون الصراحة الصريحة فى تصوير معالمة نجد أن هناك حروفا كثيرة فى خلال هذا النصف قرن فى حاجة الى أن توضع عليها النقط

ونحن لا ننظر الى هذه الفترة كما ينظر اليها الذين شاركوا فيها : وانما نعرضها في حرية كاملة وننظر اليها في تجرد ومن غير تحيز . ولا نريد بهذه الصراحة أن نحطم بطولات قديمة ولا أن نفتأت على أسماء لامعه ولكننا نريد أن نعرض للحياة السياسية والاجتماعيه عرضا واضحا صادقا .

وقد أعاننا على ذلك بعض الجذاذات التى كنا نسجل فيها بين آن واخر مفاتيح الاحداث ومعالمها فى وقت كانت الصحافة الحزبية حريصة على صياغه المخازى فى صور البطولة .

ولسنا ننسى هنا أن نسجل لعبد الرحمن الرافعى فضلا فقد كتب حياة اسماعيل فى أيام فؤاد وكتب حياة فؤاد فى أيام فاروق ومع ذلك استطاع أن يكون جريئا فى رسم هذه الصورة .

وفى هذه الفترة كانت هناك بطولات صادقة . أقتضانا الانصاف أن نعرض لها وأن نرسم لها صورة موجزه واضحة . كما أقتضانا دراسة الفترة أن نسجل بطولات سبقتها حرصا على رسم صورة كاملة لمصر المجاهدة . .

ونحن نؤمن بمصر المكافحة التى جاهدت طويلا فى سبيل التحرر والخلاص من الاستعمار والاستبداد والملكيه وطغيان الحزبيه السياسيه .

وليست حملتنا على سعد زغلول ومحمد عبده وقاسم أمين تحمل أى معنى غير الكشف عن حقائق الامور فى هذه الفترة الدقيقه . وهى ليست كما قد يتصور البعض اتجاه رجعى ، فليس شك أن الكتاب وحدة . وأن تقديرنا لفريد يختلف عن رأينا فى سعد . وأعجابنا بجمال الافغانى يختلف عن

نقدنا لمحمد عبده وآيماننا بحريه المرأه والسفور لا رابطه بينه وبين
راينا فى قاسم أمين فليس شك أن اتجاه المرأة نحو الحرية هو أتجاه طبيعى
لاسبيل الى رده أو وقفه وأن المرأة كانت ستاخذ خطوها وتطورها سوآء
أكتب قاسم كتابه أم لم يكتبه ولا رابطه قطعا بين الصراع الأوربى الذى كان
طبيعا أن يفرض نفسه على الاوضاع الأجتماعية وبين كتاب قاسم أمين. أنما
أردنا الا نقف عند الظواهر فى هذه القضايا الهامة. وأن واجبنا يقضى أن نكشف
للقارىء ماوراء هذه الظواهر من حقائق، سواء فى ميدان المرأة أو الدين أو السياسة
أو الصحافه لا نظن أنها قد اعلنت من قبل ولم نعتمد فيها على أنها مجرد روايات
متناقله، وأنما أسندنا كل جديد الى مصدر أكيد وأكثر من مصدر.

*

لندع ما كتبته الصحف السياسيه خلال العهد الماضى كله. فانه لا يمثل
الحقائق ولا يعطى الا ظلالا ضئيلة للواقع الذى كانت الحزبيه تحاول أن
تصوره - أما بصورة البطولة أذا كانت فى مصلحة أحزابها. أو بصوره
الفضائح أذا كان فى مصلحة خصومها. وبذلك لم يكن من اليسير تعرف
الأمور الصحاح خلال هذا الصراع الذى لم يكن هناك من يستطيع أن يقف
فيه وقفة التجرد والذين رفعتهم السياسة، لم يكونوا، فى أول تقدير التاريخ
الصحيح، هم الأبطال. بل لعل العكس هو الصحيح. ولعل الاصح هو أن
الأبطال فعلا هم أولئك الذين حيل بين اسمائهم وبين أن تذكر. وبين
بطولاتهم وبين أن تعلن.

أكتب هذا وأنا أذكر أن تعليمات وجهت فى العهد الماضى الى بعض الصحف
من القصر بالحيلولة دون الكتابه عن عرابى وعمر مكرم وغيرهما.

هكذا كانت اسماء جمال الدين ومحمد كريم ومحمد فريد وغيرهم تضيع فى ضجة الحديث عن الأقزام الذين رفعهم الاستعمار . أو قدمهم الملك . أو فتح لهم باب المجد الزائف الموهوم أنحنائهم هنا أو هناك . أما الوزارات التى وليت الحكم منذ ثورة عرابى الى ثوره ١٩٥٢ فانها الا القليل الأقل منها ـ قد عاونت المستعمر على حساب الشعب . وبسلطان الأستعمار الأول فى مصر ـ عاشت هذه الوزارات وتمكنت أحداها من البقاء فى الحكم ثلاثة عشر عاما وهى وزارة مصطفى فهمى . الذى كان مثلا أعلى فى الأخلاص والولاء لهؤلاء المستعمرين .

كان كل وزير من هؤلاء الذين تولوا الحكم لا يعرف كم يوما سيبقى فى الحكم فكان حريصا على أن ينتزع أكثر ما يمكن أنتزاعه ويحصى مستقبلهم بصفقة من هنا وصفقة من هناك . لم تكن أيام الحكم لديهم لتضم عملا صالحا للشعب أو كفاحا لتحرير الوطن . فتلك أمور كانت بعيده كل البعد عن تفكير الحاكمين فى تلك الفترة .

وكانت هناك وسائل براقة خداعه تصطنع لاطاله أمد الحكم لحساب ساداتهم المستعمرين . الا اذا راى هؤلاء الساده نقل الحكم الى الحزب الاخر

ووصفت الصحف أذ ذاك جميع من تولوا الحكم بالبطولة وقالت أن ماضيهم كان حافلا بجلائل الأعمال .

وأصبح هؤلاء الزعماء أداة من ادوات الطغيان والظلم فى يد الملوك وتسترت الدولة ـ اذ ذاك ـ على جرائم الرشوة والسرقة واستغلال النفوذ وحمايتها وطوردـ الامناء الشرفاء الذين حاولو مقاومة هذا الفساد او الوقوف فى طريقه .

ولقد بلغ الظلم الاجتماعي من القسوة أن قبض حفنه من الاقطاعيين على زمام الأرض الطيبة وقبضوا بالتالى على أعناق الملايين من أبناء هذا الوطن فاختل النظام الاجتماعى والنظام الاقتصادى واختلت معه جميع الموازين موازين العدل والاخلاق والكرامه وأصبح الرق الاجتماعى هو الطابع البارز لذلك العصر .

عاشت البلاد خلال تلك الحقبه الطويلة فى أتون من الصراع الشخصى العنيف هذا الصراع الذى كانت اساليبه غاية فى البشاعة والسوء وكان ذلك كله لمصلحة الملك والانجليز .

وفى خلال هذه الفترة اختفت سلطة الانجليز خلف شوارب زعماء الأحزاب ولم يكن هناك خلاف بين سلطان الأحزاب والانجليز والقصر فقد كانوا يعملون لغاية واحدة ؛ وأنما كان الصراع بين هذه السلطات وبين الشعب كان الحكام يحاولون ما أمكن أن يكموا الأفواه التى تتكلم ، ويحطموا الأقلام التى تكتب .

ولكن الشعب الذى أضطر الى أن يصمت مره ومرة . . كان قد أقتنع فيما بينه وبين ضميره بفساد هؤلاء الزعماء وضلالهم . فنفض يده منهم وكفر بهم

ومشى كثير من كتاب مصر مع الأسف فى ركب الحزبية ، وأندفع بعض أدباء مصر وراء البريق ، وعاشوا فى كنف الصحف ذات المرتبات الضخمة ، وكسبوا الشهرة اللامعه والأموال الطائلة معا . . . ولكنهم فقدوا أشياء عزيزة جداً أهمها « التاريخ » !

وقليل أولئك الذين تواروا ، وغضوا عن النار المحرقة ، الـتى أكلت الكرامة والرجولة والأخلاق . .

وإذا عدنا الى هذه المرحلة من مبدأها وجدنا الصراع السياسى قد بدأ أبان ثورة عرابى . فكان رياض هو رمز الحكم الأستبدادى ثم جاء بعده مصطفى فهمى صهر سعد زغلول

هذا الرجل الذى حكم مصر ثلاثة عشر عاما بوزارة واحدة . والذى ساق له كرومر عند سفره عام ١٩٠٦ عبارات التحيه والتقدير وهذه عبارته بالنص

« . ماذا أقول عن صديقى العزيز على ، السامى المقام فى عينى ، عطوفه مصطفى باشا فهمى . فقد قضينا السنين الطوال ، ونحن على أعظم صداقة شخصية فلا أقول أنه أعظم المصريين الذين التقيت بهم فى حياتى لطفا واكرمهم خلقا واحسنهم مناقب . أمتاز بتمام الأخلاص والأستقامة والحرية والصدق فى كل عمل من أعمال حياته

وثانيا أقول أنه خدم بلاده أجل الخدمات ولكن بطريقته المعهودة من السكينة والهدوء والابتعاد عن التعرض للغير ، والدخول فيما لا يعنيه ، ثم مضى كرومر يمدح « سعد زغلول » زعيم الامة بحكم ما سيكون بعد ثورة ١٩١٩ فقال « وأذكر أخيراً اسم رجل لم أشتغل معه الا منذ عهد قريب ولكن معاشرتى القصيرة له قد علمتنى أن أحترمه احتراما عظيما . وان أصاب ظنى ولم يخطىء كثيراً فسيكون أمام ناظر المعارف الجديد سعاده سعد باشا زغلول مستقبل عظيم للنفعة العمومية لأنه حائز لجميع الصفات اللازمة لخدمة بلاده فهو صادق مستقيم كفء مقتدر شجاع فى ماهو مقتنع به وقد أحتمل الطعن

والذم من كثير ممن دونه فضلا عن تقدمه بمراحل عن أبناء وطنه » .

فى هذه الفترة كان حزب الأمة يحمل لواء الدعوة الى التفاهم مع بريطانيا فقد كان هذا الحزب هو نواة للزعامة التى عرفتها مصر بعد ثورة ١٩١٩ .

ومما قيل فى الدفاع عن الدعوة الى الوطنية المصرية التى كانت تحمل لواءها صحيفة « الجريدة » فانها كانت تمثل رأى حزب الأمة الذى طالب بالالتقاء بالانجليز فى منتصف الطريق والذى كان لا يواجه المستعمر بالعنف ، ويؤثر طريقة الملاينة .

ولعله مما لا يخفى أن سعد كان خصم الحركة الوطنية التى كان يقودها مصطفى كامل ومحمد فريد . خصمها علانية ، وفى عهد وزارته « الحقانية » صدق على الحكم بسجن محمد فريد ستة شهور . وفى عهد توليه المعارف اعاد قانون المطبوعات القديم الذى كبل الحريات .

ولما وقعت مأساة دنشواى كان قضاة المحكمة المخصوصة هم بطرس غالى واحمد فتحى زغلول ومحاميها أبراهيم الهلباوى .

وبعد ثورة ١٩١٩ خدع الزعماء الشعب . وجاءت قصة دستور ١٩٢٣ وبرلمانه مناورة جديدة اريدبها تمزيق وحدة الأمة ـ وقد مزقتها فعلا وحكما بالصراع الذى استمر عشرين عاما كاملة ..

وبالرغم من أن هذا الدستور كان منحة من فؤاد ، فانه كان يغضبه فيقف منه موقف المثير وقد اضيفت اليه تشويهات عدة ، حتى تحين الفرصة عام ١٩٣١ فيغيره بعد أن حاول اكثر من مرة أن يوقفه .

ثم جاءت وزارة نسيم فالغت دستور ١٩٣٠ ولم تعترف باعادة دستور

١٩٢٣ ، وكان الملك يطمع فى أن يحكم البلد أطوال فترة من الحـــكم المطلق

ورفضت بريطانيا عوده دستور ١٩٢٣ وقال باترسون عنه « الدستور المصرى ، هذه الأداة المراوغة التى تأصلت عام ١٩٢٣ بضغط من الورد اللبنى قد عطلت فى عهد كل من صدقى ويحيى ومهما حدث فلابد من قيام دستور يستند الى اساس أقوى عمليا وأقل مرونه لسوء الأستعمال ، من أداه ١٩٢٣ وقانون الأنتخاب الفضفاض ،وكان الوفد يولول طالبا عوده (دستور ١٩٢٣ وكانت وزارة الخارجية البريطانيه ، ترى أن هذا أمر يجب أن يقرره المصريون أنفسهم . والملك الذى لم يرق له الدستور القديم لم يكن بكرة أن يفيد من العواطف الثائرة بسبب الخصومة القائمة بين الراغبين فى العوده الى الدستور القديم وبين الراغبين فى استبداله . أنها أحد العقد القديمة ولم يكن نسيم هو البطل .. وأخيراً اصبح فى موقف يظهره بانه هو المعارض الوحيد فى دستور ١٩٢٣ وبذلك سقط من منصبه »

وبهذه العبارات المراوغه رفضت بريطانيا عوده دستور ٢٣ ، ابلغت مصر بان بريطانيا تعارض فى أن تمنح مصر الحياة الدستورية فى الوقت الحاضر ثم القى « صموئيل هور » وزير الخارجية تصريحا كان له دوى كبير فى مصر قال « أنه عندما أستشيرت الحكومة البريطانية فى شأن الدستور أوضحت بان لا يعاد .

*

ومن الأيام الخادعه التى احتفلنا بها يوم ١٣ نوفمبر ، هذا اليوم الذى اطلق عليه « عيد الجياد » وهو اليوم الذى قابل فيه سعد زغلول وعبد

العزيز فهمى وعلى شعراوى المتعمد البريطانى - لا من أجل الأستقلال بل من أجل تنظيم الحماية ورفع بعض قيود الأضاءة وجرى فى هذه المقابلة ذلك الحديث الذى يعد سبه فى تاريخ زعيم مصر الخالدة .

وتالفت فى خلال فترة الاستقلال التى بدأت بعد تصريح ٢٨ فبراير احزاب استمدت سلطتها من الملك لا من الآمة كحزب الأتحاد عام ١٩٢٥ وحزب الشعب عام ١٩٣١ وأضطر الشباب الذى كافح فى ثورة ١٩١٩ تحت ضغط تفشى الوصولية وصراع الأحزاب الى النزول عن المبادىء والمغامره فى سبيل المال والشهرة والمجد الأجوف وقد وصل بالفعل ولكنه خسر ماضية

ويرجع هذا الى أنه ما كاد ركب الأصلاح يمضى بعد ثورة ١٩١٩ حتى برزت الأهواء الشخصية فتعثرت حياتنا ودب الشقاق فيها واستشرى فى جوانبها ، فقضى على معالم الثورة وترك ملايين المواطنين وقد كان الشقاق أول مظاهر ما بعد ثورة ١٩١٩ ، الشقاق فى سبيل الرئاسة والصداره ثم النزول على رغبة المستعمر عند ما يريد . وليس أدل على ذلك من أن سعد زغلول الذى قال لثروت ، ما انت بزعيم فى الامة ولا رئيس حزب فيها حتى يكون هناك اهمية لخلافك أو وفاقك ؟ ولكنك فرد أختبرته السلطة الأنجليزية فوجدت فيه اداة صالحة لترويج سياستها ضد بلاده فسلطته عليها فاذاقها عذاب الهون . أمامك المنابر العامه فاعلها أن وجدت سميعا ؛ والجرائد السياره فاكتب فيها أن وجدت قارئا ، والنوادى الخاصة فتحدث فيها أن وجدت نصيراً .. ، ثروت هذا هو الذى قبل سعد زغلول أن يكون رئيس الوزاره من دونه فى حين بقى هو رئيسا لمجلس النواب عندما أرادت السلطة البريطانية ذلك .

وهو نفسة سعد زغلول الذى فتح باب الكتابه الحزبية ورسم خطوط

الهجاء السياسي ثم سار في هذا الطريق تلاميذه من أعلام الكتاب الذين لا تزال اسمائهم تدوى بالشهرة ...

وهكذا قال كل زعيم في مصر للآخر . أنت صنيعة الأنجليز

وقد كان الجميع صنائعهم .

ومن بعيد ، يتلفت روح مصر ساخراً من عقوق الابناء الذين سحقوا ثورة ١٩١٩

*

وسخر سعد زغلول ومدرسته من محمد فريد .

« الجلاء هو الكلمة التي يجب على الامهات تلقينها لاولادهن قبل الفطام فينطقون بها وقتما يقولون أماه . نعم يجب عليهن تعليم النطق بهذه الكلمة التي معناها خلاص أمهم الحقيقة - مصر - من ربقه كل احتلال أجنبي »

وماتت هذه الكلمات بعد قليل فان سعد زغلول لم يلفظ هذه الكلمة أبدا ولم يضمنها أي خطبه من خطبه وأستبدل بها كلمة « الأستقلال » المطاط الموهومه وهكذا تطورت الثورة المصبوغه بالدم القاني الى « سياسة » مطاطة منافقة ضاله واحتدم الصراع بين الاحزاب . وفي داخل كل حزب . وكان من الفخر أن يقال عن زعيم من هؤلاء الزعماء أن له ميول ودية نحو بريطانيا وقال سعد زغلول أنه خسر المعاهدة وكسب صداقة الأنجليز !

أما البرلمانات فقد كانت تقام في ظل الاقطاع مستمده قوتها من جبروته ولهذا كانت الحياة النيابية مظهراً لا حقيقة ، وكانت لا تمثل ارادة الشعب ولا تعبر

عن اهدافه .

وغلب التكسب بتجارة السياسة . وأفسد الساسه الناس، فكان كبار الملاك فى الاقاليم ساده أباطره ، لا يملك أحد معهم أمرا . ليسيطرون على كل شيء ويسومون الأهالى كل سوء . وقد وزعوا انفسهم على الاحزاب فاذا جاء أى حزب الى الحكم كان لهم معه نصيب

وظهرت فلسفسة الامر الواقع . فقد سالت أحدى الصحف زعيما كبيرا فى ذلك الوقت عن الشروط التى يجب توافرها فى السياسى الناجح فقال . هو الذى تستجيب شخصيته للظروف !

واستشرى الفساد فى المجتمع فى العهد الماضى الذى أنتهى ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، واستشرى فى كل مظهر من مظاهر الحياة الأجتماعية . وتمثل فى صورة أحداث قويه هزت المجتمع هزا . وكان أبرز مظاهر الفساد ذلك الفراغ الذى ملاء نفوس الشباب فاندفعوا وراء الرغبات القصيرة الأمد . وعجزوا عن فهم المثل العليا : وتمثل ذلك فى صورة الملق والزلفى واستشراء روح التهكم على العاملين والسخرية والأستهانه بكل شيء . . بالمبادىء وبالحقوق الوطنيه

وتغلبت الوصولية والانتهازية على جميع التصرفات وفى جميع مرافق الحياة . بحيث كان الرجل المثالى ، يعجز عن أن يعيش . أو يأخذ مكانه الطبيعى فى الحياة . وكان يقف حائرا وهو يرى غيره ممن هم أقل علما يصل الى أعلى الدرجات بالتزلف والنفاق فكل رجل مستقيم الطبع ، كانت تدوسه الاقدام . ويظل منسيا فى زاوية مهملة . بل لايسلم من المؤامرات والاحقاد والأحساد لانه لا يشارك الانتهازيين فى اعمالهم .

وغلبت على مجتمعنا فى العهد الماضى الذاتية الفردية فلم تكن لدينا الجرأة

الكافيه لكى نتجرد من المؤثرات الخارجية بحيث يمكننا أن ننظر موضوعا فنعالجه بسماحه أو نلقى عليه نظره مجرده . ونصدر فيه حكما صحيحا .. وكنا نجرى وراء البريق الخاطف اللامع .. ولو كان فى حقيقة سرآبا ، ولم تكن لدينا الجرأه مرة على أن نواجه الحقائق .. فكل من وضعته الظروف فى مكان الصداره كنا نقف ورائه ونمجده ، بحكم الهوى الاجتماعى الذى ساقنا دون أن نستطيع أن نتحرر من قيوده .

وفسد تفكيرنا وتبلد ، وماتت فيه علامات الأبتكار أو النضال فكنا نجرى فى ركاب العظماء . ونراه سبيلا قصيراً سهلا للنجاح .. بعد أن وصل عن طريقه بعض الادناب من الكسالى المتواكلين الذين عاشوا على سناد من الشفاعات

وقد جهلوا أنهم أنما ينفقون فى هذا السبيل المريب من اخلاقهم ومن كرامتهم وأنهم ينبذون الرجوله ويمزقون المعنى الأنسانى فيصبحوا ممسوخين اذلاء ، لا فى العير ولا فى النفير .

ولذلك فهم قد سقطوا منذ اليوم الأول للحرية . وأنطفات نجومهم ، لانها لم تكن تستمد نورها من ذاتيها الخاصة ، وأنما كانت تستمدها من سادتهم وبقى الذين وصلوا الى اماكنهم بالكفاح والجلاد .. وصمدوا

واساء الينا الاضطراب الأجتماعى فكان من آثاره أن أخذت الطبقه الوسطى تسرف فى تقليد الطبقة العليا . . فى المظاهر والزخرف والشر واستغل الأستعمار اهتمام الشرق ببريق الالفاظ فكان يبدل الالفاظ ويبقى على المعانى . حول الاستعمار الى وصايه والى أنتداب وظل يكوى الشرق بناره

واستطاع الاستعمار أن يضرب بعضنا ببعض . وأن ينقلنا من الوطنيه الصريحة الى الحزبية النفعيه . وأن يخلق تلك الطبقة من الحكام الاثرياء

ليعيشوا فى ابراج عاجية ويحكموا الشعب من غرف ذاقته وكان لابد للزعماء الأثرياء من أن يؤثروا السلامه ويسايروا المحتل ويحرصوا على الجاه على حساب مصر وحريتها .

وتسلط هولاء الحكام الذين كان لهم وجه مع الشعب . ووجه مع المستعمر فعلمونا الذلة والانحناء . ونعموا مع طائفة الاقطاعيين بكل شيء ، وتركوا للشعب الفتات الذى لا يشبع .

وأنتقل التبذل من الطبقات العليا الى الطبقات الوسطى وما بعدها، وسرى فى محيط الرجل والمرأة على السواء فشاعت الخنوثة والرقاعة والميوعة فى القصة والمسرح والغناء والصحافة واصبح الادب والسياسة سباب وهجاء والصحافة والمسرح رقاعة وميوعة ،

رجال الدين

وبقي علينا من مخلفات العهد الماضي أن نتحدث عن الدين وبعض علماء الدين والواقع أن كثيرين من أولئك الذين كانوا منهم مثلا على البطولة والكرامه والحرية ونحن لا نعنيهم في هذا الفصل . وأنما نتحدث عن تلك الطائفه التي كانت في العهد الماضي عونا للحاكم الظالم والطاغية المستعمر . وكان أتجاهها هذا بعيد الأثر في النتائج السيئة والظلمات التي غشيت مصر طويلا

وقد حدثنا التاريخ أن العلماء في تلك العصور كانوا مرجعا هاما للامراء والسلاطين فلا تقضي دونهم الامور وكانوا يمثلون زعامة المقاومة الشعبية ولقد كان من هؤلاء عمر مكرم والسادات وغيرهم ممن حملوا الامانة بقوة .. وكان هناك من أسترخص كرامته حتى صاروا عبيدا للحكام والأمراء والسلاطين وعاشوا أذلة . وبلغوا أقصى ما يمكن أن يتهموا به وهو استغلال نصوص الدين في سبيل خدمة الملوك والحكام وارضائهم !

ولولا قبول العلماء لأعزاء محمد علي لما أمكن تحطم جبهه المقاومة الشعبية التي كان يقودها عمر مكرم .

ولو رجعنا خطوة أخرى الى الوراء . الى أيام احتلال نابليون لوجدنا

مواقف مخجـــلة لهؤلاء العلماء الذين استخفتهم الهدايا والاموال فساروا فى ركبه واذاعوا فى الناس أن الاحتلال الفرنسى هو قدر الله الذى يجب أن يقابل بالتسليم وأن عليهم « الا يحركوا الفتنه ولا يسمعوا لكلام المنافقين ولا يطيعون أمر المفسدين . ونصيحتنا لكم الا تلقوا بايديكم الى التهكلة .

واستغلوا باموور معاشكم وأمور دينكم والدين النصيحة، وهى نفس العبارات التى جاءت فى منشور العلماء الى الشعب .

*

ولقد دمغ نابليون هولاء العلماء فى مذكراته بوصمة الدهر حيث قال « لكى نسوس الناس ـ أى مصرى ـ لا بد من وسطا يسمعون، بيننا وبينهم وقد كان لا بد أن نقيم عليهم رؤساء ، والا اقاموا رؤساءهم بانفسهم ولأن العلماء خلقا لينا . ولأنهم اكثر البلاد فضيلة ، ولا يعرفون كيف يركبون حصانا ، ولا قبل لهم باى عمل حربى ، وقد أفدت منهم كثيرا واتخذت منهم سبيلا للتفاهم مع الشعب . والفت منهم ديوان القضاء . »

ومضى العلماء فى ركب الظلم الا القليل منهم ، ومن هؤلاء الذين مضوا فى ركب الظلم هؤلاء الذين هزموا عرابى . واصدروا فتواهم فى تركيا للخليفة وفى مصر للخديو » .

وفى العهد الماضى كان بعض العلماء خداما للاحزاب السياسة . وسياجا لها . وخداما للحاكم الظالم والملك الفاسق ، وكانوا يصدرون الفتوى وفق هوى السلطان .

وقد بلغوا بذلك أرفع مناصب الدنيا . بلغوها بالملق وخداع الناس

بالمظهر الجميل والعبارة الانيقة ! .

وقصه بعض العلماء فى استعداء الخديوى أو الملك على زملاءهم واضحة فى كل تاريخ وفى كل عصر ! وعندما كان محمد عبده يمالىء كرومر ، كان الخديو يستعدى عليه توفيق البكرى وغيره لتدبير المؤآمرات وتلفيق التهم .

ولعل محمد عبده نفسه لولا أنه كان مسنوداً بحمى كرومر لما استطاع مهاجمة الخديو .

*

ويروى عبد الرحمن الرافعى فى كتابة « فى أعقاب الثورة » أن « معارضة قوية ظهرت فى صفوف الازهريين ضد سعد بعد أن كانوا من أشد أنصاره وأعوانه ؛ ولم يعرف على وجه التحقيق سر هذا التحول فاضربوا عن الدرس وقام المضربون بمظاهرة كبرى فى الشوارع نادوا فيها نداءا جديدا لم يكن مألوفا من قبل وهو « لا رئيس الا الملك » بعد أن كان ندائهم المعروف « لا رئيس الا سعد » فعرف من أى ناحية حدث الايعاز لهم بهذا الاضراب وفهم بان السراى ارادت أن تحرج الوزراء ، فاثارت مساله الازهر وكان معروفا أن السراى تؤلب الازهر على الوزرا. وتدبر مظاهرات الازهريين

ومن هذه المناورات يتكشف بوضوح أى دور كانت تلعبه الحزبية مع رجال الدين

ومما رواه الاستاذ الرافعى أيضا أن « الشيخ خيرت راضى » المحامى الشرعى خطب فى أنشاء حزب الاتحاد الذى صنعه الملك فؤاد فقال « أن هذا الحزب هو الذى سيعمل لتحقيق مدلول هذا اللفظ » .

والمرحوم الشيخ خيرت راضى وزملائه كانوا يحيون ليله نصف شعبان

وليلة القدر فى قصر الدوباره الذى هو مقر المندب « السامى » البريطانى .

و لقد تنبه الكاتب الحر الذى صارع الاستبداد « عبد الرحمن الكواكبى » الى دور العلماء فى حكم الشعوب فقال فى كتابة « صنائع الاستبداد » بالحرف « الواقع أن الحكام وبطانتهم من العلماء المضللين قد أفسدوا الاديان واستخدموها لتحقيق مطامعهم واهوائهم . ولقد أنتهز رجال الدين ما تتهدد به التعاليم الدينية العاصين من عذاب فى الاخره فارادوا أن يثروا من هذا الطريق ففتحوا أبوابا للنجاة من العذاب الالهى واقاموا من انفسهم حجابا عليها

وكذلك المستبدون السياسيون يبنون استبدادهم على اساس من هذا القبيل لانهم يسترعبون الناس بالتعالى والتسامح فيذللون الامة بالقهر والقوة وسلب الاموال حتى يجعلونها خاضعة لهم ، عاملة لاجلهم ، وقد يجرهذا التعالى البشر الى أن يؤلهوا حكامهم المستبدين ويبدو هذا التألية فى أول أمره باعتقاد الشعب أن حكامه أرفع من ان يسالوا ؛ واسمى من أن يوآخذوا . وهكـــذا يستقر فى أذهان الناس أن ليس لهم حق فى مراقبة المستبد كما أن ليس لهم أن يسالوا خالقهم عما يفعل »

وقد سجل التاريخ أن بعض العلماء ساروا فى ارضاء الملك فؤاد الى أبعد حد عندما طمع فى الخلافة فعقد علماء الازهر مؤتمراً اسلاميا فى ٢٥ مارس ١٩٢٣ . كما عقد مؤتمر أخر فى ٢١ مايو ١٩٢٦ قرر أن أيجاد الخلافة الاسلامية الشرعية ممكن ويجب على المسلمين فى مشارق الارض ومغاربها

اعداد ما يلزمه من عده .

وأعيد هذا الحديث مؤيدا برجال الدين عن ما صلى فاروق المخلوع الجمعة بالناس فى احد المساجد سنة ١٩٣٨ وعندما أدعى - باطلا - أن له نسبا يمتد الى النبى .

ولقد كان لهذا الاتجاه « الحزبى » من بعض العلماء أثر فى عجز الازهر كقوة عن ان يقف فى وجه الاستعمار أو عوامله المختلفه واثاره المتعدده فى المجتمع . أو يؤدى الى دور ايجابى حاسم .

وقد سجل التاريخ أن دوره كان فى جميع هذه الازمات سلبيا محضا ولعلنا نستطيع أن نقول بحق أن اغلب المدافعين عن الاسلام لم يكونوا من الازهر : جمال الدين الافغانى ، فريد وجدى ، عبد الحميد سعيد ، احمد تيمور ، محب الدين الخطيب ، رشيد رضا .

ويتصل بهذا ما عرف من أن بعض رجال الطرق الصوفيه فى العهد الماضى كانو خداما للانجليز وقد عرف فى مصر من جمعوا ثروات طائلة عن هذا الطريق وعرف فى تركيا أبو الهدى الصيادى .

ولعلنا لا نتهم بالاغراق فى التجنى اذا نقلنا صورة الازهريين فى ذلك العهد كما رسمها واحد منهم هو المرحوم الاستاذ أحمد أمين وذلك قوله :

« والازهريون كان يتزعمهم طائفة - الفت القديم حتى عدته دينا وكرهت الجديد حتى عدته كفرا ، وعاشت فى المغامرات فلم ترضوءا واوقفت عمرها على فهم لفظ . أو تخريج جملة ، أو تأويل خطأ ، فلم تر حقائق الدنيا » .

فاذا ظهر مصلح سمم اهله الجو حوله . واحتموا بالدين . يخيفون به الحكومه . ويكسبرن به عامه الشعب . وخنقوا الطائفة القليلة من شبابه النازعين الى التجديد وحرصوا على مراكزهم أن يكتسحها الاصلاح وجاههم أن ينتقل الى يد المصلحين .. »

وجمله القول أن حياتنا السياسيه الاجتماعية والدينيه الطويلة خلال العهد الماضى كانت رمزا على النفاق من أجل المادة والمصلحة وكان الزعماء يرضون الجماهير بالخداع والاكاذيب وتضحية كل شيء فى سبيل الوصول الى الحكم والاحتفاظ به . ومن الطبيعى الا يستمر هذا البناء اكثر من ثلاثين عاما عندما سددت اليه ضربه حاسمة حز من بعدها صريعا .

واليوم نحس أن هذا الماضى كله قد أنطوى فلم يصبح الا ذكرى وتاريخا

لقطات سريعة[1]

الريـــف

حقا ما ابعد الفرق بين حياة الريف حياة المدن :.. لقد تركت فى نفسى حياة الريف أثارا جعلتنى أنفر من البقاء فية كثيرا . فانا لا أطيق الحياة فية اكثر من ثلاثة أيام منها يوم ذهابى ويوم عودتى .. أنه ليخيل الى احيانا أن بقائى هناك فيه انفصال عن هذه الحياة الدائبه العجلة السريعة المجنونه .

.. لشدما أحب الهدوء والسلام ولكن نفسى فيها شوب من العاصفه فانا لا أطيق الانتظار . وليس عندى صبر على أخذ الامور بالبساطة واللين. هناك نار تتلظى فى أعماق تدفعنى أن أعمل بسرعه . وأن أنتقل بين عمل وعمل. هناك لهيب لا ينطفىء يدفعنى أن أتجاوب مع السرعه التى تراها فى المدينه بل أننى أحيانا أضيق بهـــذه السرعة واراها أقل مما فى أعماق من سرعة . أننـــى أومن بالوقت وأحاول أن أستفيد بـــكل دقيقة منـــه .

وتجدنى أعمل دائما على أن أنهى عملى لأعـــود الى مكتبى حيث أقرأ وأكتب . فهذه هى سعادتى الكبرى وأنى لأحاول أن اعلم نفسى الصبر وآخذها بالاناه واعالج الامور باليسر وادع الزمن يمضى ويعمل عمله فى نضوج الافكار وعلاج الامور وحل المشكلات . وقد أوفق مره واخفق

(١) كتبها عام ١٩٥٥

اخرى ..

ولكنى مع ذلك قد أضيق بهذه الاسلوب السريع العاصف .وأحس بأنى لو مضيت وراء اسلوب الاندفاع الذى لا يتوقف ولا يترتب ساحطم أعصابى فانا قد ولدت فى الريف وعشت فيه الى سن الثلاثين . حياة هادئة ناعمة لا ترى فيها الا القطار بين حين وحين يزحف كالثعبان فى أفق عريض ينمو فيه الزرع ببطء ويجرى فيه الماء فى أناه . وتطلع الشمس هادئه ولا يتحرك الناس الا فى يسر ولا يتكلمون الا فى هدوء ولا يقابلون الامور الا باسلوب يتفق مع هذه الطبيعه . ثم جئت القاهرة فسرعان ما القيت نفسى فى اتونها المضطرب واستجبت لسرعتها . وكان داقعى أننى تأخرت كثيرا عن دورى الطبيعى . وما زلت الى اليوم أرانى متاخرا لم الحق بعد بالصف الذى يجب أن اكون فيه .

أن المشاريع الادبية التى امامى ماتزال تملأ على فراغى . وتدفعنى دفعا الى مصاعفة الجهد . وانا أظن أننى قد استريح بعد أن أنتهى منها . واعود الى حياة هادئه ناعمه : أعكف فيها على شىء من التأمل والقراءه والسلام النفسى .. ولكنى احيانا أشك فى هذا الامل . وارى أن طبيعتى قد ركب فيها ذلك الاتجاه العاصف السريع الذى يندفع ولا يتوقف ولا يصبر ولا يعرف الريث . . واحيانا يخيل الى أننى مزيج من السرعة والهدوء . .

ولعلى قد أقمت دارى على حافة الحقول فى شارع الهرم لاحس بعد جولاتى السريعة فى الصباح ، أننى أعود الى سلام الريف وصوره . ولعلى أردت أن ارضى فى نفسى مزاجها فى مقارفة اللونين معا ..

الحق ان الحياه المدنيه اصبحت عصبية لسرعتها . ولعل هذا مصدر

الوفيات الكثيرة بالسكته القلبية . فان الاعصاب بطاقتها المحدوده قد لا تحتمل الجهد الضخم المبذول . وانا بطبعي آكل بسرعه واكتب بسرعة ولا احتمل التزام البطء . ولا البقاء فى البيت . وما اظن انني استرحت يوما وعددته اجازه : ولكني اربط نفسي بعهود متصلة متشابكة

وكم اود لو يتاح لى الهدوء . والعمل الانيق . والاناة والريث . واستقبال الحياة على تلك الصورة الناعمة البطيئه . انني احسد اولئك الذين يتلقون الامور كلها فى هدوء ويواجهون الحياة كان الأمر لا يعنيهم ولا الزمن ولا الوقت .

انني احس ان الكرابيج تصفر على ظهرى .. وانا اشبه بذلك الحصان الذى يقوده سائق الحنطور .. وهو مندفع بقوه . لا يستطيع ان يقف او يسأل او يحمى ظهره.

انه القلق ياكل نفسى . ويجعل حياتى سلسة متشابكة من العمل والحركة والتنقل والبحث والكتابه فانا لا اطيق الجلسة الرخية على مقهى او فى مكان ما دون ان امسك بالقلم . او ادع عقلى يعد عملا آخر يكون مصيره أن يكتب او يقال

قه در الريف . حيث البساطه والبطء والهدوء . الشمس تطلع بطيئه وتمضى فى الافق متريثه وعندما تغيب يخيل الى ان اليوم اياما .

الموت

مرت على فترة من عمرى قبل الثلاثين . كنت اخاف الموت واخشاه. كنت فى هذه الفترة مشغولا بدراسات دينيه . وقد اكتست نفسى بالثوب الصوفى وبدأت أحس باننى انفص يدى من الدنيا واضيق بأمرها وأزهد فى شئونها فلما تحولت النفس عن هذه المشاعر فيما تحولت عنه ، وهى أبدأ تتحول فلا تقر على شعور أو عاطفة أو وضع . وليس هذا التحول علامه الاضطراب بل هو أثر من أثار الحيويه الدفقه فى الاعصاب ـ أقول عندما تحولت عن هذا المعنى بدأت أنظر الى نفسى فى صوره الشهاب الذى كنت أعرفه ثم انطفأ فجأه وتوارى وخلف دنيانا وكان بها حفيا ولها محبا .

ولقد عودتنى التجارب والدراسات أن أنظر الى الموت نظره الامر الحتم الذى لا مفر منه والذى لا سبيل الى تجاهله أو خشيته ، فقد آمنت بان كل انسان لابد أن يرد مورده يوما ولذلك توقعته فى كل لحظة ولكل انسان مهما كان الانسان قريبا الى نفسى ، ولذلك فانه لايفاجئنى أبدا . أنا أعرف أنه نقاد على كفه جواهر يختار منها الجياد كما يقول الشاعر القديم ، ولذلك فانا لا ادهش حينما اراه ينقض على العملاق الضخم، أو الذكى الالمعى

أو الشاب النابه فيخطفه ويدع غيره من الاغبياء والمرضى وغيرهم يحيون وتطول اعمارهم . فتلك سنه من سنين الحياة لها حكمتها العليا عند بارىء السموات .

وللموت فى هجومه هذا المفاجىء بغته وروعه تذهل الناس ولكنها حين تتكرر يكون لها اثرها فى النفوس فهى تردها عن الغى وتدفعها عن الشر . والنفس حين لا تسمع نبأ الموت قد تدفعها الطمانينه الى الطغيان والاستبداد والظلم والطمع فى الدنيا والذهاب وراء اوهامها كل مذهب والبحث عن مزيد من الترف والرغبة والهوى ، ولكنها حين يفاجئها نبأ الموت فى قريب أو ابن أو ابن جار ، تهتز من اعماقها ويعاودها الاحساس بانها زائله . ويفعل ذلك فعله فتقصر من أوهامها وترد من جماحها وتحاول أن توازن بين العمر والعمل ، ولعلها تذهب مذهب الخير وتطمع فى أن تدخر شيئا لذلك الغد المجهول الغامض الذى لا يعرف أحد ما يخبئه .

ولعل الموت يدفع الى العمل والتعويض ويملأ النفس رغبة فى تخليد ذكراها بعمل من الاعمال التى يتحدث الناس عنها بعد الموت . ولعل الموت نفسه ينصف الناس الذين تحول خصومات الحياة وصراعها دون أن يجدوا ماهم اهل له من اعتراف وتقدير ، فاذا جاء الموت رفع عن الانفس غشاوة الاحقاد وردها الى بعض القصد ودفعها فى سبيل اخر فيه انصاف وتقدير ولعل الكثيرين فى الشرق من الاعلام والعباقرة حالت الحياة دون أن ياخذوا مكانهم الحق . وصرعتهم الاهواء والمطامع الغالبة فاقصتهم عن

المكان الذى كانوا جديرين بان يحتلوه فلما جاء الموت عرف الناس حقهم وقدروا ذكراهم واعمالهم ووضعوها فى مكانها الحق وعوضهم ما فقدوه فى حياتهم القصيرة من اسباب الثراء أو الشهرة .

رمضان[1]

لا ادرى لماذا يهزنى هلال رمضان هذا العام هزا عنيفا من الاعماق ..

انى أحس له برهبه وجلال .. واستقبلته وفى نفسى اشراقه وفرحة تفاؤل.

كنت اليوم أقف فى أحد شوارع بنى سويف لارى موكب « الرؤية » هذا الموكب الذى لم أشاهده منذ كنت حدثا صغيرا فى « ديروط » اذهب ناحية المركز لاشاهد الهجانة واصحاب الحرف وهم يستقبلون مغرب يوم اخر شعبان فى فرحة . .

وعندما كنا عائدين فى السماء من بنى سويف كنت أتطلع الى الافق ونفسى هادئةساكنه - فارى الطريق ناعما مصقولا والسماء والبحر والافق والعربه تقطع الطريق مسرعة كانما أشاهد « رمضان » وهو يمد جناحه فى السماء مودعا الطباق السبع مقبلا على أرضنا وقد غمر الكون كله بضياء عجيب . وشذى جميل . واسبغ على النفوس أمنا وسكينه ورضاء .

كنت أحس للغروب نشوه . واستقبل هذه الايام الثلاثين التى تختلف فيها حياتنا عن نسق نسير عليه فى العام كله : فاذا نحن نصوم ونترقب موعد الغروب : ثم نستقبل الليل حلواً عذبا طويلا . نسهر فيه ونجد الجو كله من

١ كتبها فى رمضان ١٣٧٦

حولنا وقد تشبع بالروحيه . الاذاعه . الصحافه . احاديث الناس . . كل الدنيا تهدر بالعاطفة وتخفق بالدعاء . . وقد تفتحت ابواب السماء . واتجه الناس الى الله . . واختفت من الحياة المطامع . وخفت رغبة الاندفاع وراء المغانم . وكانما قد زهدت النفس فى هذا الصراع والتنافس . وبدت الحياة وهى تتزين . هتافات حلوه على اطعمة جديدة . الكنافة الخشاف . .

وتبدو الحياة طوال اليوم وقد خلت أو أوشكت من الطعام أو الشراب أو التدخين . القهاوى فارغه . والجالسون عليها لا يزعجهم الجرسون . ولا يطلبون شيئا . فاذا اقترب الغروب فرغت الشوارع والميادين وآب الناس الى بيوتهم فاذا أذنت المغرب كان تدافع العائدين أشد حماسة وسرعة .

فاذامضت لحظات بعد الغروب كانت الدنيا قد بدأت تعج من جديد بالناس والعربات . . منطلقة كانما كانت فى عقال تريد أن تعوض ما فاتها طوال اليوم من شراب وطعام ودخان . . وحديث . .

أن لون جديد من الوان الحياة نلقاه فى رمضان . وقد تغير نمط العمل واسلوب الحياة . ومامن انسان الى تراة يقول اللهم أنى صائم . واذا بالناس جزعين عصبيين يكادون يختلفون لاقل شيء واتفه شيء واذا هم يحاولون أن يتجنبوا الكلام أو العمل . كل مشروع يتوقف وكل أمر يؤجل . وكل عمل ينتظر . حتى بعد أن نشرب الماء . وشرب الماء هذا لن يكون الا بعد أن ينتهى الشهر المبارك . .

وما فى الشهر المبارك شيء يحول دون العمل والاستمرار . ولكنها النفس التى تزهد فى كل شيء . وتؤجل كل شيء وتجد من رمضان تعله الى هذا التأجيل .

وأنا أحب فى رمضان ليلة الرائق الذى يهيىء لى الفرصة للتأمل والقراءة فهو يسبغ على نفسى ذلك الثوب الناعم من الرضى السلام وأنه ليجىء لى كل عام وهو يحمل هداياه . ومفاجآته ويهدينى عملا فى التاليف والطبع . فانا أنتظره وأتوقع منه الكثير .. وأنه لموف لى دائما بما أريده منه أو ما ارجوه

وأنى لاحس باننى أتجاوب معه . لا اضيق به ولا أنافقه بمظهر غير المخبر . ولكنى أجده متسقا معى . لا تعرونى له دهشة أو خوف . وأنما أقبل عليه راضيا به هانئا .

الصحافة

بحثت عن « السر » الخفى وراء هذا الشعور بالانقباض عن أى صداقة أحس أننى ساصبح فى درجة التابع لها

هل هى طبيعتى الانطوانية التى تنفر من النفاق أو الوقوف موقف الاقل .

لماذا أحرص دائما على أن أقرر نفسى من التبعية والمعية فلا اكون إمعه تجرى فى التيار .

لعل سر هدا أننى أمتنحت بالصداقه الكبيرة التى تحطمت فى فةقوتها وتركتنى أحس بعدها بالالم العميق حيث جعلت جزائى كثيرا من المتاعب

لذلك حرصت دائما على أن أكون حرا لست تابعا ولا ماضيا فى طريق اكون فيه واحـــدا من حمله القماقم أو لعلنى اكبر نفسى عن التبعة لاحد

ربما كانت هذه عقدتى التى كانت سببا فى فشلى فى أن أنضم الى الزعامات الأدبيه أو الصحفية

ولعلى كنت أومن بالكرامة النفسية واراها تدفعنى بعيداً عن « الشلل » حرصا على أن احتفظ بمكانة الكاتب ومدى خطورة رسالته وجلال القلم الذى يحمله .

من العجيب أن يكون أحد الأدباء كبيرا ضخما فى نظر قرائه وفى حدود الألفاظ والمعانى التى يرددها ثم اذا هو فى محيط العمل صغيرا تافها حقيرا يعيش على فتات الموائد وينشر كلماته بتقبيل الأيدى والانحناء واذلال النفس واهدار الكرامة فى سبيل ارضاء الذين بيدهم الأمور فى النشر والالقاء فى سلة المهملات .

ولقد رايت بعينى شابا يشق طريقه فى الصحافة والقصة وهو يبكى أمام « سيد » من هؤلاء السادة عندما أبدى له ملاحظة صغيرة عن أنتاجه . ثم كان لهذا البكاء نتيجةأن ينشر هذا المكتوب بعد تعديل بقلم السيد الكبير وتظهر هذه الآثار فى الصحف ويظن القراء أن وراءها كاتبا عظيما . ضخما لهرأىومذهبوهدف وهم لايعرفون ماجرى وراءالكواليس فى سبيل نشرهذا الكلام . ولا ماهى الكرامة التى أريقت باصطناع اساليب من النفاق والاذلال والخضوع والتملق . والسهرات الطويلة فى التسبيح بحمد السيد المطاع والجرى وراء موكبه فى كل سهرة او حفلة او ناد .

اين هذا من كاتب مفكر يؤمن بأدبه وشخصة ويعز قلمه ويكره انتاجه فلا يجد من هؤلاء السادة ترحيبا لأنه لا يعرف كيف يهرج لهم او يريق كرامته فى سبيل الحصول على رضاهم . فيتجه هذا الكاتب الى التاليف والى نشر انتاجة فى كتب ورسائل لها قرائها ومكانها ، حقا انه قد ينفق كثيرا من موارده بينما يحصل أولئك على مزيد من المال ـ ولكن هذا كله لاقيمه له

فقد كان الكتاب الكبار الذين يحفظ لهم التاريخ تراثهم فقراء لا يجدون احيانا قوت يومهم ولا يطمعون فى متاع او ترف من وراء انتاجهم وانما يكفى انهم تعبوا وجهدوا وبذلوا جهوداً ضخمة واخرجوا انتاجاً مصقولا بقى على مر الزمن وسيبقى ونحن لنا فى هؤلاء قدوة .

ان العمل الصحفى السريع ، عمل ضائع لا قيمة له . ولكن العمل الباقى هو التاليف والانتاج المدروس المصقول القائم على البحث العميق . وكل هذه الصورة البراقة الزاهية . والكتابات السريعة التافهه ، التى يقصد بها الى الحصول على اعجاب القراء وارضاء غرائزهم والاستجابه لاهوائهم . كل هذا سيفنى ويزول . بعد ان تبلغ الثوره الادبية رشدها وتصل الى ذروتها ..

عندئذ يتبخر هدا الأدب ويفنى .. قد يطير كما تطير الروائح العطرية وغير العطرية ولكنة سيذهب على أى حال ويبقى فى موضع الثقل الانتاج الجيد . هذا الانتاج الذى لايصادف اليوم عددا ضخما من القراء ولا يحقق ربحا لمؤلفيه .

ولعل هذا يدفعنا الى ان نسال : هل الكاتب تابع ام رائد . هل يمكن الطاغى من الكتابات السريعة الخفيفة التى هى اشبه «بالدردشه» والتى يطلق عليها اسم القصة . والتى تتجة اشبه بالوباء الى الجنس والكشف . هل يمكن ان تبقى او تخلد : هل كاتبها يعد رائدا يكشف لاهله وقرائه وبنى وطنه افاقا جديده فى الحياة تدفعهم الى السمو بالشخصية المصرية سموا يحقق لها مكانا ضخما مرهوب الجانب فى العالم الانسانى . ام انه تابع يردد الاهات والأوهام ويجترها لتعود مره أخرى غذاء للمرهقين والمتعبين والمتشائمين والكسالى الذين يجلسون على المقاهى ويعكفون على اللهو

ليلة العيد

لست أدرى ما هى الذكرى الغامضة التى احملها فى نفسى لليلة العيد فان فى أعماق احساس مبهم لهذه الليلة . كنت اترك كل مكان اعيش فيه منذ صباى لاقضى ليلة العيد فى بلدى وبين اسرتى . لم اتخلف عن هذه العاده عاما . ولم اخالفها مرة واحدة . كانت ضريبة وكنت بها حفيا فقد كنت أحب أن القى هذه المواسم وانا فى مجموعة من الناس والأهل . ووسط ضجيج من الكلام والأحاديث ..

ذلك أننى كنت أعجز عن أن أواجه العيد وحدى . بمتاعبى والآمى واحلامى . كنت احس بالحرمان طوال العام وأحاول ان انساه ليلهالعيد .

ولكن هل كنت انساه . ابدا . كنت اذهب لأسمر هنا وهناك . واقابل الاصدقاء وزملاء الطفوله واتراب المدرسة فاذا بى ازداد سأما وهما .

وأحس باننى فى حاجة الى ان أتطلق لأسير على القناطر . وحيدا . واسبح فى تفكير طويل . كان هذا التفكير لا يعدو تلك الامال الضخمة التى كنت أحلم بتحقيقها . يوم كنت اعيش فى اعماق القرية . وأنا اتطلع الى الذهاب الى اوربا للحصول على درجة علميه . كان أملى ان اكتب واذيع

راني وانشر انتاجي واقف في صف الأدباء الذين يتصدرون للفكر .

كانت هناك الآمال المعقدة الطويلة المدى تملأ نفسي في ليلة العيد وتصبغ على بهجة الاحتفال به . فتغيض الابتسامة وتنطفىء الفرحة في قلب مشوق محروم يتطلع الى المجد ولا يجد السبيل اليه.

هكذا كانت نفسي تحس ليلة العيد وفي صباحه . أما اليوم فقد مضت صفحة الحزن والحرمان والتطلع . وتحقق الكثير مما كان يطوف بنفسي ليلة العيد ، ولكنني مازلت أحس ليلة العيد ذلك الاحساس المبهم الغامض الذي لاأعرف سره ولا ادري مأتاه..

ترى هل انتهاء رمضان ووداعه بعد ثلاثين يوما من الصوم . عشنا خلالها حياة روحية لها طابعها الخاص . فعندما تقبل ليلة العيد نحس باننا على وشك الانتهاء من لون من الحياة لنلتقى بلون اخر . تعود به الحياه سيرتها الأولى .

قد يكون وداع هذه المرحلة الروحية هو ذلك العامل الغامض الذي يملأ نفسي بالوحشة . وقد يكون هناك شيء أشد غموضا. فيه من رواسب الماضي احاسيس وفية من الامال التي تتجدد في النفس ولا تزال لما تتحقق آثار :

اذا كانت النفس لا تزال تتطلع الى امل جديد كلما حققت أملا . فان هذا الشعور المبهم الغامض في ليلة العيد لن ينطوى مطلقا ولن يذهب من النفس وسيتصل كلما اقبلت ليلة العيد

رمضان فى الريف

تترائى لى اليوم صورة رمضان فى الريف حلوه رائعه عليها ظلال من الزمن البعيد وهى تبدو حلوة رائعة عذبة المذاق ككل ذكرى . عندما كنت أجلس الى موقد الشيخ ابراهيم الثرى الحلو العباره الفكه الروح على ما عرف به من بخل وشح . وكانى أراه الان وهو يدفن براد الشاى فى النار الموقده ثم يلقى عليه حبات الشاى الا خضر الجميل ثم يقذف به بعد ان يغلى فى كوبات صغيرة مع قطع من السكر ويقدمه لضيوفه . ونحن نقرأ الى جوار نور « الفانوس » جريدة الأهرام . وهو يعلق على اخبار الدنيا . ونسخر منه وهو يمتنع عن قبض أى مبلغ يدفع له مساء الجمعة أو صباحها حتى صلاة الجمعة عملا بحكمة عجيبة .

وكنا نسأله لماذا لا نجد عنده قارئا فكان يعتذر بان قارئه مات العام الماضى وهو حزين عليه فى هذا العام .

وكنا نمضى بعد صلاه العشاء مع فريق من الأصدقاء نرتاد سهرات رمضان فى القوصية أو صنبو فننعم فيها بكثير من الفكاهات والنوادر والأقاصيص المرحه الحلوه . فاذا زرنا سهره ال رميح قبيل منتصف الليل

رفضو أن يطلقو سراحنا الا بعد تناول « السحور » ولعل رمضان فى الريف حلو عذب. تؤذن المغرب على الماذن والأطفال واقفون تحتها يترقبون ظهور المؤذن فاذا ما بدأ شبحه هرعوا مسرعين الى بيوتهم وشوارعهم وهم يهتفون « أفطر ياصايم على الكعك العايم » فتصل اصواتهم الينا قبل أن يصل صوت المؤذن فاذا فرغنا منه اسرعنا الى المساجد حيث نصلى التراويح الطويلة التى تتخللها نداءات حلوه من الدعاء . وهى عشرون ركعه تصلى ركـــعتين ركعتين فاذا أنقضت بدأ الناس يتجهون الى السهرات. يتحدثون فيها ويستمعون الى القرآن . وأنى لأذكر كيف كنا نسهر عند المرحوم ابراهيم جابر ويقرأ لنا الشيخ عبد العظيم الخياط القرآن . فاذا تقضى أغلب الليل وأنصرف الناس اغلقنا باب الحجرة . والححنا عليه أن يغنى حتى نسمع من بعيد وقـــع اقدام القادمين فيتوقف الشيخ عبد العظيم حتى اذا كان الداخل من أصدقائنا استمر فى الغناء اما اذا كان من المشايخ المطمطمين تحولنا الى القران .

ولم يكن يمضى يوم دون أن ندعى الى الأفطـار فى بيت من البيوت . وكان من أجمل هذه الدعوات ، دعوة احمد باشا جاد الرب رحمه الله حيث كان يقدم لنا « الكنافة » التى لا يعرفها الريف ودعوة محمد يوسف رميح حيث كان يقدم لنا « الفول الرميحى » الذى كان يرفض ان يقول لنا عن اسرار صناعته حتى يظل محتكراً لهم

وكان رمضان يعطى القرية رواءاً وبهاء اطوال النهار والليل فهو بالنهار هادىء فيه صورة الرحمه والأحساس والعطف والبذل والعطاء الذى لاتعرفه المدينة وفى المساء صوره الكرم فى منادرة المفتوحة وطعامه المبذول وضيوفه واحفاله وتانقه الحيبى فى الطعام وكرمة الوافر فى الحفاوة والضيافةوسهراته

القرآنية المليئة بالمداعبات والفكاهات الطلية التى لا تذهب مذهب السوء

فالريف النقى الحلو الناعم الكريم يمنحه رمضان أنقى صوره ويكسوه أبهى حلله ويجعله بهجا لألاء يفيض بالسعادة فاذا اقتربت أيامه الاخيرة اشفقت النفس من أن ينتهى ويذهب بذلك البهاء والرواء فاذا جاءت الليلة الاخيره استقبل الجميع ليله العيد فى انقباض بانطواء اجمل ليالى العام فى القرية

رمضان ١٣٧٦

ايام فى صحراء سينا

كانت نفسى تموج باحاسيس عجيبه عميقة مجهولة غامضة مبهجة . وانا منطلق الى صحراء سينا عبر طريق السويس .

كانت فى كل مرحلة من مراحل هذه الرحلة ذكرى وقصة . اننى اعود الى الطريق بعد سبع سنوات

كان قلبى يخفق فى خوف وفرحة . كانت نفسى تستعيد ذكريات مريره مظلمة مؤلمة ارتبطت بهذه المناظر وكنت أحس بان أمالا كانت تنفذ من خلال الصور و تترائى لنا من وراء الغيب. كانت النفس فى الرحله الأولى تتمنى لو كانت مطمئنه لتسعد بهذه الصوره الرائعة التى ترسمها الجبال الشماء . والبحر الرائع وهذا الأزدواج الجميل بين الجبل والصحراء والماء .

وهناك عنـــد هذه « الأستراحة » ابتسمت إذ دلفت الى حجره معده لى فقد كنت اجلس على طرفها فى رحلتى الماضيه مع محمود ونحن نتمنى أن يسعدنا الزمن بايام طيبه نريح فيها هنا و نمتع بجمال الشمس والبحر .

كانت رائحة البحر . ورائحة الصحراء . تملأ نفسى وتهز روحى . أن المناظر هى لم تتغير. هذه نفس الصورة التى رأيتها من قبل ولـكن الذى تغير

هو النفس . كانت اذ ذاك اسيرة فى الأصفاد لا نعرف متى تنطلق ومتى تعود كانت تعيش فى اشواق والآم وتصبح وتمسى وقد ارتبطت نظرتها الى الدنيا بهذا البحر وهذا الجبل وهذا السماء ومضت الأيام كليلة واهنه حزبيه لا تحمل بشرى ، بل لعلها كانت تحمل مزيدا من الحزن والآم .

فلما مضينا عن الجبل والصحراء . كانت هذه الذكريات مازالت مرتبطه بهما كانما هى جزء لا ينفصل

أما اليوم فان العود جميل . فيه اشراقه الحرية والظفر وفيه متعة وهناء

انه عود الى الأرض المقدسة بعد أن أجلى عنها الغاضبون . هذه الأرض التى ردت الينا بل التى استرددناها بقوتنا وايماننا

الا ما بعد الفرق بين لقاء ولقاء

كنا نقضى سحابة يومنا ـ انا ومحمود ـ على صخور الميناء الكبير ، فى قلب الماء ، الشمس مشرقة والهواء معتدل . والطبيعة ناعمه صامته .

كنا نرقب موجات البحر الضخام وهى تتكسر على الشاطىء الرملى ، هذه ايام الجزر . الايام التى ينحسر فيها البحر عن جزء كبير من سواحله ويكشف ا ورائه ، فتبدو فيعانه واصدافه واحجاره .

وعندما يطلع القمر يأتى معه المد . فيصل الماء الى الشوطىء ويعلوها ويستعيد البحر وقاره :

كنا نتحدث عن المستقبل واعيننا تذهب وراء الأفق حين يتصل بالماء ونحن نحلم أو ننظر فى شوق الى القلاع البعيده السابحة فى اليم

كانت هناك امال تتجمع فى النفس . وتتطلع الى العوده أترانا يوما نعود

تلك امانى حجبت اطرافها بالضباب والغيوم والسحب ولطالما وقفنا ننظر الى السمك وهو يجرى بين القنوات باشكاله والوانه المختلفة نصطاده أحيانا ونخفق مرات . هكذا كنا نعيش وقد حملتنا العربات الخشنه اسيرين يتطلعان الى الحرية أما اليوم قد عدنا وقد تغيرت الدنيا ـ لقد ذهب الذين سجنونا وأنطوت صفحتهم وجاءت الثورة التى غيرت كل شىء وعدت سجيننا فى العهد البائد شرفا لاشك فيه . فقد كنا نكتب وننشر ونذيع كل ما من شانه ان يكون معولا هداما لذلك العهد الذى كان قد تعفن .

ولقد كانت النفوس نتوق الى مشاهدة هذه المنطقة بعد ،فتحققت الامنية فى جو من الحرية والكرامة . فى رفقة رجل عظيم . كانت لحظاتنا معه كلها سعادة واشراقا .

كنت اطلق خواطرى فى هذه البقعة المباركه فاحس برعدة خوف تمر بنفسى سريعا كاللمحة البارقة .

ثم تنطوى . حقا . لقد كان الجو كله مشبع بالذكرى . كل صخره فى هذا البحر وعلى هذا الشاطىء سمعت حديثا . ووعت سرا . كنا نحب مصر وقد عملنا من أجلها وكنا نود لوأن نعود اليها لنعمل .

وكان الجو الساحر والبحر العريض بموجه وحسنه والشمس باشراقها والوانها الرائعة التى ترسلها الى الجبل الاشم وتغيرها فى كل لحظة ، ساعة الغروب، والصحراء الممتده والسماء الزرقاء كل ذلك كان يهز النفس هزا

كان رائحة الجبل والبحر والصحراء كلها تعمل فى نفسى فعل العطر

قالوا لنا أن للصحراء تقاليدها وأدابها كنا ننزل من العربات الفاخرة

فى وسط الطريق لنتناول طعامنا . والشمس الحلوه تغمرنا . والطعام الممدود على حفافى العربات والضحكات والنكات والفكاهات فى هذا الجو المشبع بالجمال الرائع حيث اطراف الموج تضرب الساحل برفق وتترك فوق الرمال قبلاتها . والجبل الأشم من الناحية الأخرى يحكى قصة الدهر . عليه جلال وفيه روعه .

كانت نفسى تغمرها عاطفة الهناء . عاطفة النصر فقد مررت من هذه المنطقة مره قبل اليوم ورايت هذا المنظر . ولكنه كان ليلا . كان الظلام يبسط حواشيه السوداء على الكون والبحر والجبل . وعلى نفسى . كنت أعيش فى الأصفاد كان من حولى حراس سود أشداء . وكانت العربة «الجيب» الخشنة تندفع بى فى قوة وعنف . كنت ارى من حواشى العربه القمر الغارب وهو يترك ظله الأصفر الباهت فى الماء .

الاما ابعد الفرق . غادرت هذه الصحراء ضيق النفس مظلم القلب . لا أعرف ماذا ينتظرنى فى الغد فقد كانت الدنيا كلها تمر بمحنة من المحن القاسيه التى مرت بمصر قبل الثورة فى ظل العهد البائد . غادرتها ليلا . كان الظلام يعمر الطريق ويغمر نفسى : وفى لحظة من لحظات الأمل تمنيت لو أعود مشرق النفس راضيا لأرى هذه الصحراء وأنا حر .

وبعد سبع سنوات تحقق الأمل وعدت . كذلك كانت نفسى تطوف بها الذكريات والصور وأنا فى تلك العربة الضخمة الأنيقة . وأمامى زجاج النافذه يكشف لى صورة الصحراء والجبل والبحر ويملأ نفسى فى تلك اللحظات بذلك الشعور العميق الحلو المر الذى يربط بين حاضر نضر مشرق وماضى مظلم أسود . كنت أحس كاننى أثار للماضى . وكنت أشعر ونحن

على حافه البحر الأحمر العريض الممتد . الى آخر الطرف ورائحة « اليود »
وهى تنبعث منه الى انفى . فاذا أتجهت الى الناحية الأخرى رأيت الجبل
الأشم والصحراء الممتدة بطابعها ورائحتها . كنت أشعر باننا شيء صغير
أزاء هذا الكون الضخم الهائل . أزاء هذا الجبل الأشم الذى ناجـــى
موسى ربة من فوقه . والذى مازال منذ أبد الابادقائما يشهد الناس والدهور والأزمان
والأجيال تولد وتمضى وتنتهى لتولد أزمان واجيال أخرى . وكانما يطوى
فى صدورة قصة طويله للحياة وقد وعاها وخفظ تجربتها وتاريخها فى صدره .

بعد سبع سنوات أعود ، فلا أجد شيئا قد تغير . هذا البحر تصطفق
موجاته بالساحل وهذا الجبل قائما أشما كانما هو شاهد على الدهر أو حارس على
البحر وما يزال البحر يقذف باسماكه وحيواناته . وما يزال الانسان يمضى
اليه كل يوم ليجد فيه رزقا

وهذه الأصداف الحلوه التى تترآى هنا وهناك . وهذه الذرات من الرمال
كم شهدت وكم سمعت وهذه الطبيعة المشرقه . شمسها الحلوة وهوائها الطليق
وهدوئها الناعم الصامت وسكونها الرائق كم تعطى هذه الطبيعة للفنان المفكر
والكاتب من زاد وذخيرة اذا عاد اليها بين حين وحين ليصقل روحه
متاعب المجتمع والمدينة وصراخ السرعة وأندفاع النفس فى دنيا المطامع
ويغسل قلبه ويطوى الى حين والأهواء والصراع على المال والمجد

ملذا على الكاتب أن يعود الى الصحراء مره كل عام ليقضى بضعة أيام
صامته هنا فى الصحراء بين الجبل والبحر . ينقطع فيها أنقطاعا كاملا عن

الدنيا لا يقرأ الصحف ولا يسمع الأذاعة ولا يطالع الكتب ولا يسال عن الناس بالبريد أو البرق أو التلفون

عشرة أيام تكفيه، يصبح فيفتح عيناه على هذا الحسن الرائق فيظل يعب منه ويدخر فى اعماقه وينقل طرفه بين الجبل الأشم والصحراء الرملية الممتده والسماء الزرقاء قد يصيد مثلا أو يدخل فى قارب صغير ليذهب الى أبعد مدى من البحر قد ينام بجوار الشاطىء ويدع الموج يضرب اطرافه وينثر الرزاز على وجه

أنه لو فعل لغسل قلبه من درن الحياه المجهدة العاصفة السريعة التى تسوقنا أمامها بسوط يلهب ظهورنا

ليتنا نفعل: ليتنا نعود مره ومره

أبريل ١٩٥٧

بين البحر والصحراء

عندما يفصل الطريق الصحراوى بين المدينة والبحر . تمتلىء النفس باحساس عجيب . ما بال هذه الصحراء الواسعة الشاسعه التى لا ترى لها نهاية صامته . مكروه . لا تحدها حدود .

أنها تملأ النفس وحشه بصمتها الرهيب . وذارتها الصفراء . فهى مهما طلعت الشمس عليها تبدو كانها السر الهائل الذى لا يريد أن يفصح عن أعماقه . أو اللغز الغامض الذى وقفت أمامة العقول حيرى فاذا ما أنطوت الصحراء بدأ البحر عريضا يملاء الفضاء لا تفصل بينه و بين الصحراء الا نبتات خضراء شاحبه .

وتجلس الى البحر العريض الأزرق الذى تضطرب موجاته وتقذف رمال الشاطىء بالزبد فتعجب لهذه الدنيا القائمة بذاتها بسرها ولغزها وجبروتها وسلطانها وخطرها وجلالها .

أيهما أشد سرا وخطراً ، الصحراء التى لا تتناهى أم البحر الذى لا يتناهى كم هو البحر يهز النفوس ويهز المشاعر . أنه ينقل الناس من حياة الى حياة أخرى أشد خطراً . انه يحولهم من دنيا الزيوف والملابس والتقاليد الى

الى دنيا أخرى فيها الحرية والتجرد والانطلاق ، أ ، يعطى الأنسان صورة أجداده القدامى . بجلودهم السمراء وشعرهم العارى . حفاة عراة غرلا .

والمرأة على البحر ، وقد أنطلقت تتدافع مع الموج وتذهب تغوص باقدامها فى الرمال وتتلقى سفعات الموج على صدرها ووجهها .

ترى هل هذا هو الطريق الى الحرية أم أنه العودة الى الوحشية . هل هو الانطلاق المندفع الى السمو أم هو العودة الى العصر الحجرى .

عندما تقع العين على البحر تمتلىء النفس باحساس جديد . غريب . مبهم فيه معانى كثيرة من الأشواق والطموح والحب والحنين الى شىء خفى مجهول . تهتز النفس وتزخر بشتى العواطف . فتشعر كانما عادت الى الصبا . تفرح كانما قد أزيلت عنها هموم الدنيا . تكاد ترقص كانما هى العصفور بللة القطر تود لو فقدت ذاكرتها فلم يعد لها بعوالم الوجود الاخر صله أو رابطه

تحس كانما قد أمتلأت باشياء جديده ناعمة هانئه ، وقد محيت عنها قصة الماضى بخيره وشره ،

كانما هذا البحر رحيق يمكن أن تعب منه دون أن ترتوى ودون أن تنتهى وتجلس على البحر فاذا أنت لا ترى فى هذه الأجساد العارية المكشوفة التى تذهب هنا وهناك ، منطلقة أو كسولة . مسرعة أو زاحفه . لا تحس لها ذلك الشعور المرتبط بالدم واللحم . كانما ليست الا عرائس الموج ، أو أرواح هفهافه لا صلة لها بالغرائز والرغبات

مامصدر هذا الشعور وما منبعه ؟ : هل هى النفس التى تصفو على البحر وترق وتدنو من عوالم النور ، فاذا هى عازفة عن الشر والأثم والهوى منطلقة الى الحب والخير والجمال.

أم أن النفس ترهب البحر وتراه مارداً جباراً فيه من عناصر الالوهية مايهز النفس ويبهر القلب ، فهي تخفي أثامها وشرورها وتطويها فلا تكشف الأعما في أعماقها من ضياء ..

لله ما ابعد الفرق بين مشاعر النفس تجاه البحر ومشاعرها تجاه الصحراء أنه الانطلاق يساوى الأنقباض . والفرح يوازى الخوف ؛ والهناء يقابل الضيق . والحنان يواجه الحزن .

كلا هماتجمعه صفات الجبروت والعظمة والسلطان وكلاهما يهز النفس ويستأثر بالقلب ويبهر العاطفة . ولكن شتان مابين الضياء والظلمة . شتان ما بين الرمل والماء . والذرات الصامتة والموجات الثائرة والشمس على البحر غيرها فى الصحراء . البحر رجل يعطى ويمنح والصحراء أمرأة تطلب العطاء وتنتظر الرفيق والبحر موردبجيئه الناس من كل مكان ويقصدونه من كل فج . والصحراء معبر يمر به الناس صامتين منقبضين يودون لو مروا به سالمين وللصحراء فلسفة فيها الصبر والصمت والحرص وللبحر فلسفة فيها الأنطلاق والضحك والعطاء والناس على البحر متجردون لا يخالفون وهم فى الصحراء يودن ظل أو يبحثون عن ما يدرءون به عن أنفسهم الشمس أو الأعاصير

أغسطس ١٩٤٧

موضعات الـكتاب